7

صراع الاستخبارات السرية سنة 1944

«أوفر لورد» أو المباغتة الناجحة

هجوم الأردين: السرية الكاملة

الصدمة

معركة الأردين وتهاوي شخصية هتلر

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

«أوفرلورد» أو المباغتة الناجحة

عن صراع الاستخبارات السرية سنة 1944

نجح الحلفاء الغربيون نجاحا تاما في الإبقاء على سرية «أوفر لورد»، أي إنزالهم في فرنسا سنة 1944، فكانت القيادة الألمانية تتخبط في العتمة، في كل ما يتعلق بمكانه وتوقيته، وأخذت على حين غرة، عندما حدث في الساعات الأولى من يوم السادس من حزيران/ يونيو سنة 1944 على شواطئ النورماندي[86]. أما حجم المفاجأة التي باغتتها، فيعرفه الشاهد النزيه لهذه الأحداث، الذي يعلم كذلك أن الرد الانتقامي لم يتأخر، وأن مفاجأة الألمان في حزيران/ يونيو تلتها في كانون الأول/ ديسمبر من العام ذاته مفاجأة ربما كانت أكبر للأميركيين، جسدها هجوم الأردين، رغم اختلاف نتائج الهجومين. هكذا، تعتبر سنة 1944 سنة صراع ضخم لأجهزة الاستخبارات السرية، استخدم فيه الجانبان أعظم قدر من خبرتهما في مجال المكافحة، وعرف كلاهما الانتصار والهزيمة في هذا القتال الصامت. ثمة في مكان آخر من هذا الكتاب رد على السؤال: لماذا عنت عملية «أوفرلورد» بالنسبة إلى قيادة أيزنهاور العليا البداية الظافرة لنهاية الحرب العالمية الثانية في أوروبا، بينما لم تكن المفاجأة التكتيكية الألمانية الناجحة في الأردين كافية للحيلولة دون الكارثة النهائية، إن لم تكن قد سرعتها، على الأرجح؟.

تميز الصراع بين أجهزة الاستخبارات على الجانبين بالفشل التام تقريبا

للجاسوسية التقليدية. أما الانتصار، الذي حققته مكافحة التجسس الحليفة، فلم يكن أمرا خارقا، بسبب وفرة ما كان في حوزتها من وسائله وقواه، حتى إن العدد القليل من الجواسيس الألمان، الذين لم يتم كشفهم، أو لم يتحولوا إلى التعاون مع الحلفاء، لم يجرؤوا على استخدام أجهزتهم اللاسلكية، تحاشيا للرصد اللاسلكي الحليف الصارم[1]. هكذا لم يبق للألمان من سبيل إلى معرفة الأوامر التي ترد من أنجلترا غير رصد المقاومة الفرنسية، التي ستقوم بتنفيذها، وكان يوجد دوماً إشارات ملموسة تدل عليها. بالمقابل، يعد فشل الجاسوسية المعادية وراء خطوط الألمان منذ نهاية سنة 1944 أمراً مليئاً بالألغاز، يقول ليو هيب، وكان آنذاك رئيس استخبارات الجيش لدى أركانه العامة، عنه[2]: «أدى هجوم الأردين الألماني إلى مفاجأة العدو بطريقة ندر مثيلها في تاريخ الحرب. ويثير الدهشة هنا أن الحلفاء كان يجب أن يعرفوا قوة وحدات الدبابات الالمانية وأماكن انتشارها، خاصة وأن تفوقهم الجوي كان يتيح لهم حرية حركة كاملة تقريبا، تمكنهم من استطلاع منطقة الرايش، وأنه كان بوسع استخباراتهم السرية تجنيد عدد كبير من العملاء الموثوقين والملائمين، القادرين على القيام بأعمال الرصد العسكري، من بين العمال الأجانب الكثيري العدد الموزعين على ألمانيا بأسرها، وأسرى الحرب العاملين في اقتصادها». هذه الحقيقة تظهر على كل حال ضآلة الأهمية التي عزاها الحلفاء عند نهاية الحرب للتجسس التقليدي.

(1) بحسب فاراجو، مرجع سابق، ص 359، عرف فرع هامبورغ عبر رسالة برقية بعث بها من انجلترا عميله هانسن يوم 15 كانون الثاني سنة 1944 أن أيزنهاور، بصفته القائد الأعلى للقوات الحليفة في أوروبا، سيصل إلى انكلترا يوم 16 كانون الثاني/يناير. في هذه الاثناء، كان هانسن قد تحول منذ وقت طويل إلى متعاون مع الحلفاء.

(2) ليو هيب: الاستطلاع والتضليل اللاسلكي، في مجلة الدفاع العلمية، آذار/مارس 1954، ص 110.

يثير الاهتمام هنا العدد القليل من الجواسيس، الذين كانوا في المراكز القيادية الأعلى، لكنه لم تصدر عنهم أي معلومة حول هجوم الأردين.

كيف عمل الحلفاء والألمان آنذاك، من أجل حجب الإنزال وهجوم الأردين؟. أي وسائل ستر وتضليل استخدما، وأي إهمالات ارتكبها الجانب المقابل وسهلت النجاح في مباغتته؟. نريد تسليط الضوء على هذا الفصل من الحرب العالمية الثانية، الذي توجد مواد كثيرة حوله نجدها في المنشورات المختلفة، التي سنحللها ونلخصها ونغنيها بوثائق إضافية[1]، تتيح لنا معرفة الترابطات الكبرى للحرب. لئن كانت استخبارات الطرفين قد بلغت كمالها في هذه الإنجازات، فإنها قد أظهرت أيضاً حدود إمكاناتها.

«أوفرلورد» والاستخبارات السرية

كانت الحرب العالمية الثانية قد تجاوزت سنة 1944 المرحلة، التي كانت فيها قدرات الطرفين متوازنة إلى حد ما. وكان تفوق الحلفاء في الغرب والشرق وإيطاليا يزداد وضوحا. هذه الحقيقة لعبت دورا محبطا في الأشهر السابقة مباشرة للغزو، حيث واجه ضباط المكافحة في الجيوش ومجموعات الجيوش وأركانهم من رجال الاستخبارات الألمانية، التي لم تضم في العادة أكثر من خمسة إلى سبعة ضباط وقادة خاصين، مجموعة استخبارية حليفة عملاقة، تشكلت خصيصا من أجل أهداف تتعلق بالستر والمكافحة، وضمت لبعض الوقت نيفا وألف شخص دون معطيات أوثق

(1) من «يوميات الحرب لآمر جبهة الغرب». توجد مستنداته جميعها ضمن الأرشيف العسكري في فرايبورغ / الأوب.

حول رتب ونشاط منتسبيها... الخ[1] - ومراكز المكافحة في فرنسا. بوجه الإجمال، يمكن أن يكون قد عمل في مواقع الاستخبارات التابعة للأركان، وفي المكافحة والاستخبارات الألمانية في الغرب قرابة 500 شخص سنة 1944، فضلا عن الجواسيس والمراسلين الكثر نسبيا العاملين في فرنسا، الذين سنخصهم بحديث خاص.

وضع الجانب الحليف خطة مدروسة لحجب عملية «أوفرلورد» وتضليل الألمان، هناك سلسلة شهادات موصوفة حولها، منها، على سبيل المثال، معلومات مهمة نجدها في مذكرات المارشال مونتغمري، وفي التقرير الشامل، الذي كتبه بطريقة رائعة شستر فيلموت بعنوان «الصراع على أوروبا»، وتقرير رايان «يوم القيامة». غير أن الكتاب المتخصص، الذي يهمنا بالدرجة الأولى، هو طبعا مذكرات اللواء كينيث سترونج «رئيس الاستخبارات في الحرب والسلام»، الذي يمدنا بأكثر المعلومات إثارة للاهتمام. تعتبر المعلومات الألمانية حول العمل الاستخباري، الذي تم سنة 1944، شحيحة، إن استثنينا التقرير الغني الذي كتبه أوسكار رايله بعنوان «الجبهة الغربية السرية»[2]. لكنه بقيت هناك سلسلة من الوثائق في يوميات الحرب، دونها آمر جبهة الغرب، تقدم بدورها معطيات إضافية، سنرجع إليها فيما بعد.

تخبرنا مذكرات المارشال مونتغمري[3] أنه ما إن جاءت نهاية شهر آذار/مارس من سنة 1944، حتى كانت قد وضعت جميع تفاصيل «أوفرلورد»: الإسم السري لعملية غزو فرنسا. تقدمت الجيوش المنقولة

(1) فيلموت، مرجع سابق، ص 210 وما يليها. كذلك سترونج: رئيس الاستخبارات، ص 168 وما يليها.

(2) رايله: مرجع سابق، ص 430-445.

(3) مونتغمري، مرجع سابق، س 162.

بفرقها من الدرجة الاولى إلى المواقع الممقررة لها، كي تقوم بالتدريبات الأخيرة على اليوم X، الذي تحدد أول الأمر في الخامس من حزيران/ يونيو. وقد شهد شهر نيسان/ أبريل مناورات بلغت ذروتها بين الثالث والخامس من أيار، عندما جرى «تمرين عام» عملاق شاركت فيه جميع وحدات الهجوم. أما في الثامن والعشرين من نيسان، فقد تم نقل مقر قيادة مونتغمري الرئيس إلى ساوثويك هاوس قرب بورتسماوث، حيث سيكون مقر قيادته العملياتي. في اليوم X كان الجنرال بيل وليامز مكلفا بمتابعة أوضاع العدو لدى مجموعة جيش مونتغمري، وهو خبير في غربلة ما يصله من معلومات، يستبعد قليل الأهمية منها، وينقل إلى قائده الأعلى صورة مطابقة لوضع العدو. وفي الخامس عشر من أيار/ مايو سنة 1944 قدم القائد الأعلى لعملية «أوفرلورد»، الجنرال الأميركي أيزنهاور، في مدرسة سان باولي بلندن نظرة عامة عن خطة الغزو الإجمالية، استمع إليها قادة الدولة والقوات المسلحة بحضور الملك، تركت انطباعا مؤثرا لدى سامعيه.

قوَّم مونتغمري وضع ألمانيا في حينه على النحو الآتي[1]: «تقاتل ألمانيا اليوم على جبهات ثلاث: في روسيا، وإيطاليا والبلقان. وسيكون عليها أن تقاتل قريبا على جبهة رابعة. إنها لن تتحمل هذا على الأمد الطويل. صحيح أن لديها فرقا كثيرة، إلا أنها جميعها ضعيفة، وليس بينها فرقة واحدة كاملة القوة. كما أن مدن ألمانيا ومحافظاتها الصناعية تتحول بفعل الهجمات الجوية المستمرة إلى مناطق مقفرة. وبما أن الغارات ستستمر هذا العام بدرجة متزايدة، فإنه لن يبقى الكثير من مدنها الكبرى في نهاية سنة 1944، وألمانيا مطوقة من جميع الجهات، ويمتلك الحلفاء المبادرة في كل مكان. وفي حين نواصل الهجمات الجوية من دون رحمة، سينتقل الروس إلى

(1) المرجع ذاته، ص 269 وما يليها.

هجمات أخرى، بينما تواصل جبهة البحر المتوسط ضغطها. سيتوقف الكثير على نجاح عمليتنا، الذي سيؤدي في تقديري إلى شل تدريجي لقدرة ألمانيا. وسننجح... إن قمنا بعملنا بصورة صائبة، ولم نرتكب أي خطأ، وستحل نهاية المانيا في اعتقادي نهاية هذه السنة... لدينا المبادرة. والعدو لا يعرف أين ومتى سننزل على الشاطئ». إن ستر هذه الـ «أين» والـ «متى»، وإظهار رغبة عملياتية أخرى غير تلك المقررة حقا، كانا نقطة ثقل الاستعدادات التي سبقت عملية «أوفرلورد»، التي لن يكون لها حظ في تحقيق النجاح الصاعق المطلوب، إذا فشلت المفاجأة التكتيكية، وعجزت الوحدات النازلة على الشاطئ عن توطيد مواقعها ودمج رؤوس جسورها التكتيكية في رأس جسر عملياتي قابل للتوسيع، وأخفق الحلفاء في إقامة مطارات على البر الأوروبي لطائراتهم القاذفة / المقاتلة التكتيكية في أقصر وقت ممكن. هذا الهدف الإجمالي وضع الحلفاء له خطة أعطوها اسما سريا هو «فورتيتود».

اتخذ الحلفاء تدابير أولى لحجب «فورتيتود» بينها: قطع أي اتصال منذ شهر شباط/ فبراير 1944 بين المملكة المتحدة وجمهورية إيرلندا، التي لم تكن في حالة حرب مع ألمانيا، وتمكنت المكافحة الألمانية من إقامة شبكة عملاء فيها، التقطت أخبار إنجلترا وحصلت على معلومات إضافية من خلالها. هذا المصدر أغلقه الحلفاء الآن، مثلما أغلقوا في نيسان/ أبريل شريطا ساحليا عريضا في وجه الزوار، يقع بين واش باي وبين لاندر إند على جانبي فيرث أوف فورث، وفرضوا تقييدات غير مألوفة على الديبلوماسيين الأجانب، الذين منعوا كما منع مراسلوهم من مغادرة البلاد أو دخولها، واخضع بريدهم للرقابة[1]. وزاد قادة «فورتيتود» على ذلك بأن

(1) فيلمونت، مرجع سابق، ص 210.

أعلنوا عن هذه التدابير. أعلمت شعبة «الجيوش الأجنبية غرب» رئيس الأركان العامة بالمستجدات، فنقل معلوماتها إلى هتلر، الذي احدث التقرير تأثيرا غير متوقع عليه، فقد أثار اهتمامه، مع أنه كان لا يأبه كثيراً بنتائج عمل الاستخبارات المتخصصة بالعدو، بل ويرفضها بجلافة. وقد تطرق إلى هذا الموضوع في مناقشة الوضع، التي جرت يوم 6 نيسان/أبريل من سنة 1944، وقال حرفياً: «علي أن أقول بصدق أن القضية التي يمثلها الإنجليز تبدو لي كمسرحية. إن المعلومات الجديدة حول تدابير الحظر التي يتخذونها، وإجراءات المكافحة... الخ، التي يتبجحون بها... هي أشياء لا يقوم بها المرء في الوضع الطبيعي، وهي غير ضرورية إطلاقا عندهم. باستطاعتهم تجميع قواهم هنا، ونستطيع دعوتهم ويستطيعون السفر إلينا. ليس بمقدورنا إطلاقا أن نعرف ما يفعلونه هناك. وليس بوسعي التخلص من الانطباع بأن الأمر ربما كان يتعلق، رغم كل شيء، بمجرد خدعة صفيقة»[1].

لم تكن التدابير المتخذة خدعة، كما اعتقد هتلر، الذي ربما كان يراوده الأمل بكسب ممكن للوقت. لقد كانت جزءاً من مخطط «فورتيتود» العام، الذي كان يستهدف طبعا إغلاق مصادر معلومات الألمان الديبلوماسية والمحايدة. فضلا عن أنه كان للخطة في مجملها هدف مختلف نعرفه اليوم، أريد للتدابير الحصيفة، ولحشد قوات الهجوم الحليفة وتوزيعها أن تخدمه، هو إيهام قيادة الالمان العليا أن الغزو سيستهدف منطقة بادو كاليه، التي ركز الحلفاء عليها حربهم الجوية، ووجهوا 95 ٪ منها ضد أهداف تقع شمال ونهر السين وشرقه[2]، فدمروا جميع الجسور بين باريس والهافر، وأجبروا

(1) مناقشات هتلر للأوضاع. أجزاء بروتوكولية من مؤتمراته العسكرية بين 1942 و1945. شتوتجارت 1962، س 556 (مختصر).

(2) فيلموت، ص 211. يؤكد المؤلف صحة هذه المعطيات، لأنه كان قد نقل آنذاك إلى شعبة استخبارات القيادة العليا غرب.

الألمان على تحويل جميع طرق المواصلات بين شمال غرب ووسط غرب فرنسا. وجعلوها تمر عبر منطقة شرق باريس.

مركزة استخبارات الحلفاء المتخصصة بالعدو

تركزت الاستخبارات المتخصصة بالعدو لدى قيادة الحلفاء العليا في أوروبا، التي كان يرأسها الجنرال أيزنهاور، منذ فترة الإعداد لعملية «أوفرلورد»، في يد واحدة هي يد كينيث سترونج، رئيس استخبارات أيزنهاور منذ شباط/فبراير 1943، تاريخ الضربة التي تلقاها الأميركيون في القصرين بتونس، الذي كان قد جمع خبرات عملية مهمة كرئيس للمكافحة التابعة لقوات بريطانيا المسلحة في الوطن الأم. والآن، في سنة 1944، كان من المناسب إعطاء أيزنهاور، القائد الأعلى الجديد، المجدّ، ولكن القليل الخبرة، شخصية تتولى قيادة استخباراته، تعرف قوات ألمانيا المسلحة وتتقن العمل الاستخباري. هكذا وصل سترونج، بعد وقفة قصيرة في إيطاليا، يوم 23 أيار/مايو إلى مقر أيزنهاور العام في بوش بارك غرب لندن. وقد وصل في الدقيقة الأخيرة، كما يقال، بما أن مناورات التضليل كانت قد بدأت منذ وقت طويل، بقيادة الجنرال وايتلي، الذي تولى إدارتها، لكنه عاد الآن إلى موقعه القديم كنائب لقائد شعبة العمليات في قيادة أوروبا العليا الحليفة.

يقول سترونج عن الاستخبارات، التي استلم قيادتها يوم 23 أيار/مايو 1944[1]: «إن المجموعة التي التقت في القيادة العليا ببوش بارك، ربما كانت أفضل مجموعة أركان حرب استخبارية وجدت في يوم، وأكثرها خبرة، فقد انتمى إليها ضباط من البحرية وسلاح الجو... جاؤوا من جميع الوظائف، وامتلكوا أكثر التجارب الحياتية اختلافا، ومؤهلات وخبرات جعلتهم قادرين

(1) سترونج، ص 165 وما يليها.

على إنجاز مهامهم. ومع أن عددا قليلا منهم كان قادرا على العمل بكامل طاقته خلال سنته الاستخبارية الأولى: الفترة التي يحتاج المرء إليها من أجل امتلاك خلفية المواد الاستخبارية الجوهرية، فإن من حسن الطالع أن معظم أعضاء أركاني كان لديهم خبرة تتجاوز العام ـ وكان لشعبة الاستخبارات في القيادة العليا فرعان مهمان... تولت المجموعة الأولى والأهم منهما معالجة المعلومات حول العدو، أي خططه ونواياه ومصادره المساعدة وتعليمات التعبئة لديه. بينما كانت الثانية، أعني مجموعة المكافحة، مسؤولة عن أمن القوات المسلحة الخاصة. وكانت تخوض حرباً مستمرة ضد الجواسيس والعملاء المعادين، لأن تطهير المنطقة الخلفية من المتجسسين كان عظيم الأهمية سواء بالنسبة لتحضير الهجوم، أم لحماية الإمداد».

يصف سترونج، بعد هذا المقطع، من أين كانت تأتي المعلومات عن العدو، أو كيف كان تركيبها. لم تكن عمليات الحصول على المعلومات مختلفة هنا كثيراً عن تلك التي كان يستخدمها الألمان. طبيعي أن الحلفاء وجدوا في مجموعات المقاومة في فرنسا جواسيس إضافيين، بينما تعرضت قوات المانيا المسلحة لخسارة متزايدة في جواسيسها داخل بريطانيا العظمى، فلم يبق لها من وسيلة غير العمل على تشكيك العدو بقوته الخاصة، أو تشويش صورتها الخاصة لديه، بالإيحاء عبر التضليل اللاسلكي، ورايات قيادية مزورة، وسيارات ذات أرقام تضليلية، وعبر نشر الشائعات بوجود تحركات أو تعزيزات للقوات. وقد أظهر ضابط شعبة الأركان الثالثة المسؤول لدى القيادة العليا غرب، المقدم ماير ـ ديترنج، الذي كان المؤلف قد وضع بإمرته طوال هذه الأشهر، خيالا غير مألوف في هذا المجال. بالمناسبة، كان يراد للترسيمة التالية في الحصول على المعلومات أن تكون فاعلة لحظة وقوع الغزو:

1 ـ الاستطلاع الاستخباري (الاستطلاع اللاسلكي).

2 ـ الوثائق التي يتم غنمها.

3 ـ استجواب الأسرى.

4 ـ الاستطلاع على الجبهة.

5 ـ الاستطلاع الجوي.

6 ـ إذاعة العدو

أما ترتيب الحصول على المعلومات فيكون بحسب أهمية المعلومات ووفرتها في الوضع المعطى.

المقاومة كمصدر معلومات

خلال عمله لدى شعبة الاستخبارات في القيادة العليا غرب، شعر المؤلف بوجود مصدر آخر مهم، لا يتعلق، في واقع الحال، بالحشد المعادي، بل بالأوامر والمعلومات التي كانت تتلقاها القوى داخل فرنسا أو مجموعات حرب العصابات في الجبال من لندن، وكانت مهمة لأمن فرنسا بما كان فيها من معلومات عن الغزو ويوم الإنزال، أو تسمح بمعرفته عن موعدهما ومكانهما. كان ضابط المكافحة المقدم رايله مسؤولا عن جمع هذا النوع من المعلومات، فكان يتعاون عن كثب مع ماير ـ ديترنج، الذي يعد كتابه «جبهة الغرب السرية» مصدرا سخيا للمعلومات حول هذا الجانب من تاريخ العمل الاستخباري[1]. قد نجح رايله في تسريب جواسيس موثوقين إلى صفوف المقاومة، مكنوا الجاسوسية المضادة الألمانية من الإبلاغ يوم 1 حزيران/ يونيو 1944 عن أمر تلقته مجموعات المقاومة الفرنسية من لندن

(1) اعتبره الجنرال ماير ديترنج مصدراً موثوقاً. رايله، ص 442.

obeikandl.com

بإعلان أعلى درجات التأهب القتالي. كما أبلغ المقدم رايله يوم 5 حزيران/ يونيو 1944 في الساعة 19 قيادة الاستخبارات لدى قائد الغرب الأعلى أن قوات الغزو غادرت إنجلترا[1]، لكنه لم يقل شيئاً حول مكان الإنزال، الذي كان غير معروف قدر ما كان مجهولا جواب السؤال: هل هناك إنزال واحد أم إنزالات متعددة؟. بالمناسبة، كان المناخ ووضع القمر وحركة المد والجزر غير ملائمة يوم الخامس من حزيران/ يونيو إلى درجة أثارت الشكوك بإمكانية نجاح الإنزال. هل كان الأمر مجرد خدعة؟. لقد توقع الألمان الغزو يوم 15 أيار، بحيث بدت جميع الشروط ملائمة. وعندما لم يقع، اعتقدوا بحدوثه في موعد لاحق، لكنه متأخر جدا. لذلك سافر رومل يوم الرابع من حزيران/ يونيو للاحتفال بعيد ميلاد أحد أفراد اسرته في أيرلنجن قرب أولم، وأخذ المقدم ديترنج، المختص الرئيس في شؤون العدو لدى القائد الأعلى غرب إجازته في الفترة بين 15/ 5 و6/ 6 / 1944، ولم يرجع إلى عمله إلا مساء السادس من حزيران/ يونيو. وقد ناب عنه أثناء غيابه الرائد دورتنباخ، وكان ضابط المكافحة لدى القيادة العليا غرب الرائد برينك، هو ضابط الارتباط معه. عموما، ضمت شعبة الاستخبارات والمكافحة لدى القيادة العليا غرب تسعة ضباط وقادة خاصين (نورد من قبيل المقارنة عدد الضباط العاملين لدى الشعبة المماثلة في القيادة الأميركية، الذي بلغ نحو مئة ضابط)[2]. نجح الحلفاء، على كل حال، في تحقيق مفاجأة تامة، في ما يتعلق بتوقيت الغزو، وأحرزوا نجاحهم رغم تحذير المقدم رايله. هذا التحذير تكرر كثيراً، وكثيراً ما سمع المرء صرخة «لقد جاء الذئب» وكأنه يسمع الحكاية الخرافية المعروفة، مما سبب ضربا من البلادة لدى القيادة،

(1) المرجع ذاته.

(2) ورد هذا الرقم والمعطيات التالية في رسالة بعث بها الجنرال ديترنج إلى المؤلف.

حتى إن خبير شؤون العدو في ذلك الوقت لدى القيادة العليا غرب لم يمض يوم واحد منذ تولى منصبه في تموز/يوليو من سنة 1943 إلا ووصل فيه إلى مكتبه تحذير واحد أو عدة تحذيرات تعلن وقوع الغزو، فضلا عن تحذيرات بلا عدد وصلت إلى الوحدات المقاتلة. هذا الاهتراء الروحي كان أحد نجاحات الاستخبارات الحليفة، إن صح أن مركزها كان هو الذي ينشره. بالمقابل، أسهمت الإمكانات المحدودة إلى أبعد حد، التي حالت دون التأكد من صحة التحذيرات، في تحويل تقويم التحذيرات إلى مجرد لعبة حظ. إليكم ما كتبه فريدريك هاين، ضابط شعبة الأركان الثالثة لدى الفيلق الرابع والثماني في كتابه «غزو 1944» حول هذا النوس المستمر بين الاسترخاء والاستعداد للقتال: «حبست القوات أنفاسها منذ منتصف نيسان/أبريل، فلم يعد أحد في النهاية يأخذ التحذيرات على محمل الجد، بسبب حالة التبلد التي أحدثتها، إلى أن جاء التحذير يوم السادس من حزيران/يونيو 1944 في صورة قصف[1].

مصادر معلومات الحلفاء

كان الحصول على المعلومات قبل الغزو سهلا نسبيا بالنسبة إلى الحلفاء، على العكس منه لدى القيادة العليا غرب الألمانية. وكانت الظروف الخاصة في فرنسا تجعله متاحا بدرجة وافرة، وعلى حد قول لسترونج، فقد جاء الاستطلاع الجوي، في شروط التفوق الجوي الحليف، «بمعلومات هائلة القيمة»[2] في ما يتعلق بالمرافق الدفاعية في النورماندي خاصة، مكنت القيادة من رسم خرائط وضع تفصيلية، وبينت تغيرات الانتشار المكاني للقوات. بذلك، حصل الحلفاء على نظرة عميقة على مواقع تجمع

(1) فريدريك هاين، مرجع سابق، ص 49.
(2) سترونج، ص 167.

الاحتياطي الذي سيتدخل في المعارك. أما حيث كان هناك غموض، فقد أصدر الحلفاء أوامرهم عبر اللاسلكي إلى مجموعات المقاومة المحلية، التي كانت تتم قيادتها بحزم من لندن، يطلبون فيها إنجاز مهام محددة. بالمناسبة، نستطيع أن نقرأ بين أسطر نص سترونج أن الحلفاء كانوا يرفضون الاعتماد على استخبارات الأنصار وقوى فرنسا الداخل وحدهما، لأنهما كثيراً ما بعثا بمعلومات مضللة، وصلتهما من الألمان، وصدقتا خدعا بصرية أوهمتهما بوجود أركان وقوات، كانت قد لفقتها شعبة المكافحة الثالثة بتوجيه من استخبارات القيادة العليا غرب. يقول سترونج حول هذا الموضوع[1]: «يحب بعض الناس أن يفاجأوا، فلا يمكن الحديث عندئذ عن الجاسوسية إلا في أضيق الحدود. لكنه سيكون من قبيل التضليل أن ننسب إلى العملاء دورا قياديا في الاستخبارات العسكرية خلال أزمنة الحرب. هذا لا يعني أن دورهم قد لا يكون حاسم الأهمية في المكافحة (التجسس)، لكن تجاربي في الاستخبارات العسكرية لا تترك للجاسوس عموما غير مكان متواضع جداً في الحصول على المعلومات، رغم أن شجاعتهم وقدرتهم على الابتكار وصلابتهم غالباً ما تثير إعجابا إنسانيا عميقا، وتوجد بالتأكيد اهتماماً كبيراً بهم، لأسباب إنسانية». لا شك في أن حكم سترونج يرتبط بالتجارب، التي اكتسبها مع العملاء والجواسيس الناشطين في فرنسا قبل الغزو، الذين كانوا يعملون في ظروف مثالية، بالمقارنة مع غيرهم، ويتلقون الدعم من أبناء بلدهم، وقد تلقوا إعدادا عسكريا جيدا، فكان بوسعهم الحصول على معلومات سرية مفيدة، عيبها أن العدد الأكبر منها كان يتم جمعه بصورة متقطعة، إذا ما تأملناه بمنظار الباحث. لم يكن الجاسوس مهما إلا عند قيامه بمهام محلية، كأن يؤكد معلومات الاستطلاع الجوي أو يكملها من خلال

(1) سترونج، ص 17.

قيامه برصد محلي. لا غرو إذن في أن الجواسيس أرسلوا إلى إنجلترا من القش أكثر مما أرسلوا من القمح، شأنهم في ذلك شأن معظم الجواسيس الشعبيين، وأنهم أثقلوا بهذا كثيراً على أجهزة استخبارات الحلفاء، وهذا عيب إضافي يجب أن يكون في حسبان كل جهاز استخبارات يستخدم جواسيس.

هل كان ثمة وضوح في مقر أيزنهاور الرئيس حول قوة وحدات ألمانيا المسلحة في فرنسا وتوزعها؟. لا يقدم سترونج معلومات دقيقة حول الموضوع، بينما يلفت النظر، بالمقابل، حديث شستر عن فرق فون روندشتيدت الستين[1]، التي زعم أنها كانت على أهبة الاستعداد يوم السادس من حزيران/يونيو، في حين لم تكن فرق أيزنهاور الـ 37 في كامل جاهزيتها إلا بعد سبعة أسابيع. هذا كان على كل حال حساب ورقي، لأن الفرق الأنجلو / أميركية كان أقوى قتاليا بكثير من مثيلتها الألمانية. فضلا عن أن المهاجم يستطيع عند تحقيق مفاجأة ناجحة أن يكون بسرعة نقاط ثقل يعبئ فيها قوى محلية متفوقة، ويزيد من قدرته هذه أن يكون مجال النقل الجوي والبحري تحت سيطرته فلا يخاف الإعاقة أو الضربات التي قد يقوم بهما سلاح الجو الألماني. يبدو، على كل حال، أن مناورات التضليل الألمانية تركت أثرا واضحا، ذلك أن رونشتيدت لم يكن يملك يوم 6 حزيران/يونيو 60، بل 54 وحدة كبيرة، بينها قرابة سبع وحدات ثابتة، ربطها افتقارها إلى وسائط النقل بالقطاعات التي كانت تدافع عنها، فاستحال تماماً استخدامها في مواقع أخرى من الجبهة، لكنه من غير المؤكد أن أركان استخبارات سترونج كانت تعرف هذه الحقائق بتفاصيلها[87].

مهما يكن من أمر، فقد حرص الحلفاء على تفادي المغامرة، وكانوا

(1) فيلموت، ص 217.

يعرفون طبعا أن الفرقة الحليفة تمتلك قوة نارية وقتالية أعلى وعددا من المقاتلين أكبر بكثير من مثيلتها الألمانية. بالنظر إلى أنه كان هناك احترام لخبرة الألمان القتالية وللصيت الذائع لقوات ألمانيا المسلحة، استهدفت التدابير الإعدادية في مجملها لحظتين: لحظة المباغتة، التي تمكنهم من تحويل رؤوس جسور تكتيكية بسرعة إلى قواعد عملياتية في فرنسا، واستخدام جميع الوسائل المتاحة لإثارة الانطباع بأن الحلفاء يريدون النزول في مكانين مختلفين من البر الفرنسي، ستكون نقطة ثقلهما في جميع الأحوال با دو كاليه، لأن هذا الانطباع سيتكفل بإبقاء كتلة الجيش الألماني الخامس عشر الرئيسة شمال السين. أما في التصورات الألمانية، فقد بدت الكيفية التي سيتم بها الغزو جد تبسيطية، تقوم على الشروع في عمليات تطويق تنطلق من رأسي الإنزال، ستشمل قوات الدفاع الساحلي، كي تقطع عنها الإمدادات وتبيدها. في الواقع، لم يقرر أيزنهاور القيام بعمليات تطويق، بل أراد تركيز جميع القوى على رأس جسر واحد، يقوم فيما بعد باختراق مجال مفتوح.

حجب مخطط «فورتيتود» هذه الرغبة بجميع الوسائل التي يمكن تصورها، فتم، مثلا تجميع الفرق، التي ستتبع موجة الهجوم الأولى، على طريق دوفر، للتظاهر بوجود جيش غزو على شاطئ القنال. للغرض نفسه، حشد في خليج التايمز ومرافئ إنجلترا الجنوبية الشرقية مجسمات عربات إنزال، بينما بنيت في مطارات كنت وأوستانجليان مجسمات ناقلات شراعية، وأقيم في دوفر مقر قوات كامل، وبنيت بصورة استعراضية في الرؤوس الصخرية المقابلة لبولونيا محطة ضخ أنبوب وقود، سيمد قوات الإنزال بالمحروقات، وأقيمت في كل مكان من جنوب شرق إنجلترا مخازن جديدة ومستودعات عملاقة، ومدت شوارع وبنيت أعداد كبيرة من منشآت التخزين والمرافئ، فضلا عن أن المنطقة كانت تعج بالقوات. من الطبيعي أن الأوامر

فرضت صمتا لاسلكيا صارما، تم التقيد به، فلم تحدث غير خروقات جد قليلة له، وإن انفردت وحدات سلاح الجو باتصالاتها اللاسلكية، عندما كانت تقوم بمهامها، فكانت معظم الأحيان مصدر المعلومات الوحيد بالنسبة إلى استطلاع الألمان اللاسلكي اليقظ، الذي لم ينجح أبدا في معرفة الأمر الأكثر أهمية: أين وكيف نزل الحلفاء على الشاطئ. ثمة قضية غريبة ساعدت الحلفاء على ذلك.

«الجيوش الاجنبية غرب» تخدع نفسها

عرفت القيادة العليا الألمانية واقعتين على درجة عالية من الغرابة، قبل غزو سنة 1944، انصبت أولاهما على القوة المحتملة للقوات التي ستنفذه، ونجمت الثانية عن حدس هتلر. ومع أنهما فريدتان في تاريخ الحروب الحديثة، فإنه لم يكن لهما أي تأثير، أو كان كان لهما تأثير محدود وحسب على مسار الحدث الكبير، أعني معركة فرنسا والهزيمة التي منيت بها القوات المسلحة الألمانية فيها. هاتان الواقعتان يجب أن توصفا بالغريبتين، وقد كان لهما كلتاهما تاريخ سابق.

ظهرت شتاء ومطلع سنة 1944 فرق حليفة وهمية على الخرائط الميدانية «للجيوش الأجنبية غرب»، انتشر شبحها عبر تقاريرها جميعها، بدءا من ذلك الوقت. لماذا نشأ هذا الوهم؟. لم يكن هذا التضليل موجها إلى «اهل العلم»، بل كان هدفه القائد الأعلى للقوات المسلحة الألمانية، الذي كان يلاحق بشكوكه منذ وقت طويل معلومات شعبة المكافحة بقيادة كاناريس، التي كانت قد فشلت في سلسلة كاملة من الحالات، مما أدى إلى حلها وحصول الاستخبارات على ثقة هتلر، بضمانة هملر. بما أن هذا كان ميالا إلى رؤية وردية للوضع، وتقدير قوة العدو بأقل مما هي عليه، فقد وجد رئيس «الجيوش الأجنبية غرب»، عقيد الاستخبارات الأمير فون رونه، سببا

يبرر مبالغته في قوة العدو، هو الحيلولة بين هتلر وبين سحب وحدات من الغرب يتطلب الدفاع عنه بقاءها فيه. عندما قدم هملر والاستخبارات صورة متفائلة جداً للوضع في الغرب، فكر القوم بمخرج يحول دون إضعاف الجبهة كثيراً ما اعتمد في تاريخ الاستخبارات السرية: جعل العدو أقوى بفضل عدد من «الفرق الوهمية»، التي لم يكن لها وجود، أو كانت تقاتل في مواقع أخرى من الجبهة. أما خريطة الوضع التي ارتسمت بهذه الطريقة، فاعتبرت من ذلك الوقت فصاعدا صحيحة تماما، وعززت اقتناع القيادة العليا غرب بأن الحلفاء يخططون لإنزال ثان، وأن لديهم وحدات أكثر من كافية لذلك. هكذا حشدت «الجيوش الأجنبية غرب» ما لا يقل عن ثلاثين وحدة كبيرة إضافية، كانت تقف على أهبة الاستعداد على الورق، بعد فترة طويلة من بدء الغزو، على حد قول شستر فيلموت: «برر رئيس الشعبة العقيد ڤون رونه هذا التزوير، الذي قامت به أركانه، بالقول: إذا كانت الاستخبارات ستخفض هذه التقديرات جريا على عادتها، فإن تقريرها الأخير سيكون، بفضل هذه الفرق الوهمية، أقرب إلى الحقيقة. وقد حققت هذه الحيلة هدفها المباشر نهاية شتاء 1944، وعززت نظرة أكثر واقعية إلى الوضع، غير أنه تبين أن تحميل الفرق الشبحية على الخرائط كان أسهل بكثير من التخلص منها، وأنها بلبلت القيادة العليا الألمانية لدى إجراء تقويم للعمليات، طوال أشهر كثيرة بعد اليوم X[1]»، ومارست تأثيرها على الواقع حتى خلال الإنزال ذاته، فقد كان لها نفوذ قوي على تصورات الألمان لنوايا الحلفاء، وأقنعت «فوق» أن العدو قوي إلى درجة يستطيع معها النزول على شاطئين مختلفين وبعيدين بعضهما عن بعض، وأنه سيبدأ بعد ذلك عملية تطويق للألمان:

(1) فيلموت، ص 198. كان العقيد رونه أحد ضحايا العشرين من تموز/يوليو. لذلك لم يمكن الاستماع إلى الأسباب التي جعلته يتصرف بالطريقة التي نعرفها.

وهو ما كان مرجحا أن يقوم به رونشتيدت، لو كان في وضع أيزنهاور. بهذه النظرة، تمسكت القيادة الألمانية حتى احتلال شيبورغ يوم 26 حزيران/ يونيو بفكرة أن با دو كاليه هي نقطة الإنزال الثانية المحتملة، حيث المسافة بين الجزر البريطانية والبر الأوروبي هي الأقل، ومنطقة حوض الرور، قلب ألمانيا الصناعي، هي الأقرب. بذلك، نجحت أركان «فورتيتود» في خداع الألمان حول نوايا جيش الغزو العملياتية، فضلا عن نجاحها في إحداث المفاجأة التكتيكية. مع ذلك، لا يعبر سترونج عن حقيقة الظروف، عندما يكتب[1]: «مهما كانت الأخطاء التي اقترفتها استخبارات الحلفاء خلال الحرب، فإن أيا منها لا يمكن مقارنته بخطأ الألمان الفظيع، وبعجزهم عن معرفة أنه خطأ. لو نقلت القيادة الألمانية فرقها في الأيام الأولى من بادوكاليه إلى النورماندي، حين كان سوء الأحوال الجوية يحول دون بناء الجبهة الحليفة ويعوق الدعم الجوي، لواجه غزو الحلفاء أوقاتا شديدة الصعوبة». فهل كان نقلها ممكنا في الواقع؟. سبقت الإشارة إلى أن جميع جسور السين بين باريس ومصب السين كانت قد دمرت، وأن قسما من فرق الجيش الخامس عشر بالذات كان فرقا ثابتة، فضلا عن أن معظمها كان مقيدا بمواقعه، فكان الوقت اللازم لنقلها إلى النورماندي طويلا إلى درجة أنها كانت ستصل جميعها متأخرة، حتى لو صدرت إليها أوامر التحرك في السادس من حزيران. المسألة الأخرى هي ما إذا كانت القيادة العليا غرب ومقر الفوهرر الرئيس قد عرفا الوضع على حقيقته: في هذه الحالة، ربما كان من الضروري القيام بتحريك فوري للاحتياطي العملياتي، الموجود جنوب السين، الذي كان سيضغط بشدة على وحدات الإنزال الحليف الأولى. لماذا لم يحدث هذا؟. لسبب غريب هو الآتي: في معظم الأحيان،

(1) سترونج، ص 178.

تلعب لحظات غير عقلانية دورا حاسما في الحرب، أو تلعب المصادفة، التي يؤكد كلاوزيفتز عليها بصورة خاصة، هذا الدور.

حدس هتلر

لا بد من تسجيل أمر غريب آخر حدث بالارتباط مع الغزو، ويستحق اهتمام معاصرينا. ينصب الأمر هذه المرة على هتلر شخصيا. في منتصف نيسان/أبريل، قبل أسابيع ثمانية من بدء الإنزال، حدث ما أقلق قيادة الحلفاء العليا، التي عرفت عبر استطلاعها الجوي أن العدو يزرع المناطق، التي ستنزل فيها موجات المظليين الأولى بما كان يسمى «هليون رومل»، وهي أعمدة وخوازيق تغرس بقوة في الأرض. ما الذي حدث؟. هل باح أحد بخطة الغزو؟. لم تكشف التحقيقات والتدقيقات عن مواقع رخوة[1]، وإن كانت المكافحة الألمانية تعرف من عملائها القليلين، الذين لا زالوا يتمتعون بحرية الحركة، أن هناك تجمعات سفن وقوات لا تني تتعزز منذ مطلع سنة 1944. لكن المكافحة لم تستطع الرد بأي صورة من الصور على سؤال القيادة العليا غرب ومجموعة الجيش (ب)، التابع للمارشال رومل: متى، أين، وبأي قوى سيتم الإنزال. لم ينجح أي جاسوس ألماني في التغلغل إلى الأركان الحليفة العليا، فلم يكن بوسع أحد غير مكافحة الجاسوسية العسكرية الإبلاغ عن واقعة «أن قيادات أجهزة الاستخبارات المعادية، المرابطة في لندن، تحاول منذ مطلع سنة 1943 استطلاع منطقة باريس ومنها في اتجاه كاين وشيربورغ، باستخدام قوى تلفت قدرتها الأنظار»[2]. توصل إلى هذه النتيجة الجلية من قوموا المهام التجسسية، التي كلفت لندن بها عملاءها في فرنسا، وعرفت المكافحة عنها بواسطة عملائها في مجموعات

(1) فيلموت، ص 212 وما يليها.

(2) رايله، ص 432.

المقاومة الفرنسية، وتم طبعا إبلاغ قيادة الجيش العليا و«الجيوش الأجنبية غرب» بها، عبر ضباط استخبارات القيادة العليا غرب.

هل وضعت هذه المعلومات جميعها أمام هتلر، وهل أولاها اهتمامه من دون استثناء أي واحدة منها؟. لم يعد ممكنا التأكد من ذلك بصورة قاطعة، وإن كان القائد الأعلى أصدر مطلع نيسان/أبريل سنة 1944 واحدا من إيعازاته الغريبة، وكان الأخير في الحرب العالمية الثانية: تبعه أمر صدر عنه يطلب تعزيز شاطئ النورماندي بالسرعة القصوى[1]. ربما كانت اوراق «شيشرون» هي التي دفعته إلى إصدار أمره، لكنه من الثابت أنه لم يكن هناك إلى اللحظة غير أربع فرق مشاة، تقف وراءها فرقتا تدخل احتياطيتان، في المنطقة الواقعة بين مصب السين وأفرانش عند أقدام شبه جزيرة كوتانتان. إلى هذا، كانت فرقة دبابات الـ إس إس الثانية عشرة (شبيبة هتلر) مرابطة بين السين والأورن كاحتياطي عملياتي. هذا الوضع ما لبث أن تغير حتى مطلع حزيران/يونيو 1944: عندما تلقى الدفاع الساحلي من مصب السين إلى كوتانس نحو سبع فرق مشاة، انتشرت وراءها الفرقة الحادية والعشرون المدرعة، مدعومة بفوج مظليين وكتيبة تدخل سريع. إلى جانب وحدات روسية رابطت بين كوتانس وأفرانش، من مجموعة الجيش الرابع والثمانين التابعة لجنرال المدفعية إيريش ماركس[2]، الذي كان يعتبر قائدا بارزا. بينما رابطت في البروتانيه فرقة المشاة السابعة والسبعون حديثة التشكيل، وكانت

(1) فارلينمونت، ص 438.

(2) أجرى المؤلف قبل الغزو محادثات مطولة متكررة مع رئيسه السابق لدى قيادة الجيش الثامن عشر العليا، الذي أصيب بجروح شديدة مع بداية حرب روسيا سنة 1941 وقطعت ساقه جنرال المدفعية إيريش ماركوس، وهو الآن جنرال قائد للمجموعة 84 في النورماندي. لا بد أن ألاحظ هنا أنه في خريف سنة 1943 نظم العقيد ماير ـ ديترينج لضباط استخبارات مجموعة الجيش (ب) مناورة على الخرائط ترتكز على حدوث إنزال حليف على شاطئ النورماندي.

الفرقة المدرعة، التي أعيد تشكيلها في أيار/مايو من سنة 1944 منتشرة في المنطقة جنوب غرب شارتر، كجزء من الاحتياطي الاستراتيجي الموجود في المناطق الخلفية. لقد قام هتلر ببعض التدابير، لكنه تبع في ذلك غريزته أكثر من أجهزة استخباراته، علما بأنه لم يكن هناك جهاز استخبارات مركزي في أركان قيادة القوات المسلحة، يقبل المقارنة ولو من بعيد بجهاز سترونج التابع لقيادة الحلفاء العليا في أوروبا. وكان يوجد موقع استخباري، لكن الضابط المتخصص بمعالجة المعلومات فيه، لم يشارك في مناقشات الوضع اليومية، التي يجريها الفوهرر، ولم يستقبله القائد الأعلى كي يستمع إلى التقرير الدوري منه[88]. بدورها، افتقرت المكافحة وشعب «الجيوش الأجنبية» إلى رأس موحد، ولم يكن لدى المكافحة جهاز تقويم خاص بها، فكان جهاز الاستخبارات الألمانية في الحرب العالمية الثانية كلياً بالمعنى الحرفي «فوق». من جانبه، لم يكن لدى القائد الأعلى غرب غير شعبة استخبارات / قيادة عليا، عرفت بالتأكيد أن الغزو آتٍ، لكنها لم تعرف بدقة يوم 5 حزيران/يونيو: متى وأين وكيف سيقع. والحق، لم يتوقع أي موقع قيادي باستثناء رايله قدوم قوات الغزو يوم السادس من حزيران/يونيو. أما هتلر، فقد غط في النوم على البرجهوف فوق برشتسجادن إلى وقت متقدم من قبل الظهر، ولم يوقظه الجنرال يودل، عضو ما كان يسمى المستشارية الصغيرة، مع أنه كان على بعد نصف ساعة منه بالسيارة.

في مقر رومل الرئيس من 4 إلى 6 حزيران/يونيو 1944

«انقلب المناخ يوم الرابع من حزيران/يونيو إلى أمطار ورياح غربية عاصفة... غادر رومل مبكرا في السادسة صباحا إلى المانيا. وقال حول لحظة سفره: يقل القلق من احتمال حدوث غزو في الفترة بين المغادرة والرجوع، لأن الأحوال الجوية ستكون غير ملائمة إلى أبعد حد في الأيام

التالية، والاستطلاع الجوي لم يقدم أي شيء يشير إلى وجود إنزال مباشر وشيك. وكان قد ناقش قبل سفره مع شبايدل، رئيس أركان مجموعة الجيش (ب)، تفاصيل التدابير التي يجب اتخاذها في حال وقوع هجوم، وأعد الرجلان بعناية لاستنفار القوات وأركانها، علما بأن القدرات الدفاعية كانت قد ازدادت بدرجة كبيرة خلال الأشهر الخمسة ونصف من عمله في الغرب، من دون أن تكون قد انتهت بعد، ففي حين كان زرع الألغام جاريا على قدم وساق، لم يكن قد بدأ بعد تقريبا بناء عوائق متقدمة في مواقع كثيرة، وكانت النقطة الأكثر ضعفا في مجمل الدفاع تكمن في أن الفرق المدرعة لم تكن قد اقتربت بعد إلى المسافة اللازمة وراء «حزام رومل»، التي تمكنها من التدخل الفوري لدى وقوع هجوم، وتقديم المساندة المطلوبة للمشاة». هذا ما كتبه نائب الأميرال السابق فريدريك روجه، أميرال البحرية الحربية في حينه لدى مجموعة جيش رومل، في مذكراته «رومل والغزو»[1]، قبل أن يضيف: «لم يكن هناك صباح الخامس من حزيران/ يونيو 1944 ما يشير إلى أن قرار الهجوم قد اتخذ على الجانب الآخر من القنال، وأن أرمادا عملاقة شرعت تتحرك، وأن العاصفة ستهب على قلعة أوروبا. كان كل واحد في مقر مجموعة الجيش (ب) يقوم بخدمته كما في الأيام الهادئة... وكان شبايدل قد دعا مجموعة مهمة إلى العشاء، كالكاتب أرنست يونجر، الذي كان يخدم كمقدم لدى القائد العسكري، والقنصل العام بفايفر، الذي امضى سنوات كثيرة في روسيا بعد سنة 1926، وكان سنة 1940 في إيطاليا و1942 في الجزائر، حيث سجن، ثم عاد قبل فترة قصيرة من الولايات المتحدة، والعقيد ليس، الذي كان في القيادة العليا للجيش، وأصيب كقائد فوج بجراح شديدة جداً في روسيا، والمراسل الحربي ريتر فون شرام، وصهر شبايدل الدكتور هورست، العامل لدى الإدارة

(1) فريدريك روجه: رومل والغزو، ص 166 وما يليها.

العسكرية... وكان الحوار حيويا إلى أبعد حد، دار حول إيطاليا، روسيا وسياسة فرنسا... ونواقص هتلر، والظروف في الولايات المتحدة وموضوعات أخرى كثيرة. بعد تناول طعام العشاء، قمنا بنزهة على الأقدام عبر الحديقة، ونحن نواصل النقاش». سيدخل المؤلف هنا ذكرياته الخاصة: ذهب معظم السادة الذين ذكرت أسماؤهم بعد النزهة إلى غرفة الطعام، ليواصلوا سمرهم الحار، الذي انفرد به أساسا العقيد ليس، وحكى عن براوشيتش وهالدر وماكنزن العجوز. في هذه الأثناء، اصطحب شبايدل إرنست يونجر ودكتور هورست وشرام إلى مكتبه. بعد قليل وضع كتاب السلام ليونجر على الطاولة، التي كنا قد جلسنا حولها، فرحبنا بتصوره بأصوات مكتومة وتداولنا في خياراته. قبل منتصف الليل بقليل، عاد يونجر وبفايفر إلى باريس، بينما واصلنا نحن حديثنا، الذي وجه شبايدل خلاله نقدا شديد الحدة إلى هتلر وألمح إلى أن وقت تحرير ألمانيا منه قد حان. لم يتحدث أحد عن الغزو، في الساعات الأخيرة قبل الإنزال الأول، التي تحركت خلالها أرمادا مخيفة للهجوم على قلعة أوروبا، من دون أن نعلم به. كان رئيس أركان مجموعة جيش رومل يتحدث عن السلام ولا شيء سواه، كما نسيت من جانبي الحرب خلال هذا الحديث...

بعد منتصف الليل بساعة، كان القلق باديا للعيان في قصر لاروش - غيويون، حيث اختلف الجو تماما. حين رن الهاتف لدى شبايدل، ذهبت إلى غرفة الاستقبال، حيث كان الضابط المرافق يؤدي عمله ؛ مددت يدي والتقطت بطريقة ميكانيكية رسالة لاسلكية كانت أمامه على الطاولة، فوجدت أنها تتضمن إلى جانب بلاغ عسكري قصير الأبيات العجيبة الحزينة من قصيدة الشتاء لفيرلين، التي تبدأ بالكلمات التالية: «التأوهات الطويلة لكمانات الخريف». ذلك كان البيت الأول، تلاه البيت الثاني في البرقية، الذي قال نصه: «تجرح قلبي برتابتها الطويلة». ما معنى هذا؟. سألت

الضابط المرافق مستغربا. فرد بلهجة ساخرة «إنه الغزو». بعد ذلك بقليل، في الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة، جاء شبايدل من غرفته، هادئا ومتماسكا كعادته. وكانت شعبة قيادة الجيش السابع في لومان قد أبلغت للتو عن إسقاط مظليين على الشاطئ الشرقي لشبه جزيرة كوتانتان. «هل هذا هو الغزو؟». سألت شبايدل، الذي أجابني بهدوء: «من الممكن أن نكون حيال مناورة تضليلية»، وأضاف «مهما يكن من أمر، فقد بدأت اللعبة».

ثم حدث أمر غريب: كان يجب أن يعرف مقر الفوهرر الرئيس في هذا الوقت أن الغزو بدأ. صحيح أنه لم يعلن عنه أي جاسوس أو أي جهاز استخبارات متخصص بالعدو. لكن مقر الفوهرر الرئيس عرف في الخامس من حزيران/يونيو بطريقة أخرى أن الغزو وشيك الوقوع، بوصول أبيات فرلين ومعناها في الوقت الصحيح إلى الجنرال يودل، رئيس أركان القوات المسلحة[1].

أنبأ موقع المكافحة في الجيش الخامس عشر قيادته بالخبر، ولفت نظرها إلى تعميم البيت الثاني منذ ليلة الرابع من حزيران/يونيو وهذا كان أمراً حاسماً، لأن الجواسيس، الذين تم تسريبهم إلى المقاومة، نقلوا إلى الألمان معنى البيت، وهو أن الغزو سيبدأ بعد ثمان وأربعين ساعة. بعد تلقيه الخبر، أمر العماد فون سالموث، قائد الجيش الخامس عشر، بإعلان حالة الاستنفار القصوى. لماذا لم يتم تحذير الجيش السابع، المرابط على ساحل النورماندي غرب مصب نهر أورنه؟. هذا ما لا يعرفه أحد. وتبقى مجهولة كذلك الأسباب التي جعلت رئيس أركان القوات المسلحة يمتنع عن إيلاء أي أهمية تذكر لنبأ الغزو، الذي وصله بعد ظهر الخامس من حزيران/يونيو. هل ارتبط هذا التجاهل بالأزمة حول المكافحة، التي تدهورت إنجازاتها

(1) نتابع هنا كتاب فارليمونت، ص 432 وما يليها.

تدهورا مستمرا في مجرى الحرب، إلى أن غدت غير مرضية البتة، وجعلت نقطة ثقل جمع المعلومات تذهب إلى وسطاء آخرين ووسائل أخرى؟. كانت الحاجة، في النصف الثاني من الحرب، قوية بدرجة غير مسبوقة إلى مكافحة الجاسوسية، أي إلى شعبة المكافحة بمواقعها الخارجية وجاسوسيتها المضادة، والتي كانت الجهة الوحيدة في فرنسا، التي أرسلت تحذيرا مسبقا حول الغزو، كما يتضح من تسلسل الأحداث الزمني[1].

1/ 6/ 1944: نحو الساعة 18: يلتقط الرصد اللاسلكي في فندق لاتسيا، مقر المكافحة الرئيس في فرنسا، 26 رسالة برقية لإذاعة BBC، تتضمن أوامر كثيرة بإعلان أعلى درجات الاستعداد القتالي.

5 حزيران/ يونيو: الساعة 18: نشر أبيات فيرلين، ومنها البيت الثاني.

19.30: يبلغ المقدم رايله، مدير الموقع 3 غرب في استطلاع الجبهة، الرائد برينك، نائب ضابط شعبة الأركان الثالثة الغائب في إجازة، كتابيا وشفهيا أن الرسائل، التي تم بثها نحو الساعة 18 من يوم 5 حزيران/ يونيو، تعني: «أن الغزو قد بدأ، وأن عليهم الانتقال فورا إلى تنفيذ المهام المسندة إليهم في اليوم إكس». وقد تم إبلاغ ضابط المكافحة في القيادة العليا للجيش الخامس عشر في شمال فرنسا بالنبأ مباشرة أو في الوقت نفسه، فلماذا لم تبلّغ القيادة العليا للجيش السابع، التي كانت الإمرة لها على ساحل النورماندي؟. الجواب واضح: لأن الجميع كانوا متأكدين من أن نقطة ثقل الإنزال ستكون على شاطئ القنال.

تحتل أهمية خاصة هنا شهادة الجنرال فارليمونت، نائب رئيس شعبة القيادة في الأركان العامة للقوات المسلحة، الذي كتب في مذكراته[2]:

(1) رايله، ص 442.

(2) فارليمنونت: ص 432.

«عشية الغزو، في الخامس من حزيران/يونيو سنة 1944، لم يكن المقر الرئيس الألماني متأكدا على الإطلاق من أن وقوع حدث الحرب الحاسم صار مباشرا، فقد فشل الاستطلاع في اكتشاف أكثر من خمسة آلاف سفينة، كانت تتحرك منذ اربع وعشرين ساعة عبر القنال في اتجاه شاطئ النورماندي، ولم ير أي تقويم للوضع، سواء أجراه رومل أو رونشتيدت أو رئاسة أركان القوات المسلحة، أن الأحوال الجوية والمد والجزر يجعلان الإنزال محتملا في الوقت التالي... في ظل العمى، الذي أصاب مراتب القيادة الألمانية في سائر مستوياتها، بسبب الدونية الكاملة لسلاحها الجوي، يبدو أمرا عصيا على الفهم أن لا تقيم هذه وزنا لإشارات جهاز المكافحة التحذيرية، التي وصلتها في الوقت الملائم - حسب علم المؤلف -. ألم يكن معروفا في دائرة الحظر الثانية أن «صمتا لاسلكيا» تاما يسود منذ بضعة أيام في منطقة الحشد الإنجليزية الجنوبية، وأن هذا أمر مألوف، شأنه شأن الإشارات التي تستخدم للتضليل، عندما يكون ثمة هجوم وشيك؟. ألم يعرف أحد أنه وصل منذ كانون الثاني/يناير سنة 1944 إلى الأميرال كاناريس نص رسالة برقية قيل إن الإذاعات الإنجليزية ستبثها قبل الغزو بقليل، لتكون إشارة تحذير موجهة إلى المقاومة الفرنسية، هو بيتا شعر فيرلين؟.

بعد الأخبار الدقيقة حول الإنزال المظلي على شاطئ النورماندي، لم يعتبر أحد الأحداث «مأسوية»، كما يقال في حالات كهذه. هذا ما تؤكده التسجيلات التالية في اليوميات الهاتفية لضابط شعبة الأركان الثالثة، التابع للقائد الأعلى غرب، وهي مدونات أصلية:

6/ 6/ 1944: مخابرة من ضابط الخدمة: توجد قفزات مظلية على شبه جزيرة كونتانان قرب كاين جنوب مصب السين. ومواعين شحن بحري في مصب أورنه.

02.05: مخابرة من ضابط أول في الأركان العامة: تعتبر الحالة هادئة مؤقتا. القيادة العامة للجيش 84 اعلنت الاستنفار من الدرجة الثانية.

0.300: مخابرة من الرائد دورتنباخ لدى مجموعة الجيش (ب): رئيس مجموعة الجيش (ب) يعتبر الوضع هادئا جدا. ثمة إمكانية لوقوع خطأ يتعلق بقفز أطقم طائرات بالمظلات.

03.05: مخابرة من الرائد ڤون شاپر/الرائد دورتنباخ: طائرات كثيرة تطير ببطء فوق جزر القنال.

03.10: مخابرة قائد الاستطلاع الاستخباري الشعبة الخامسة المقدم ريختر / المقدم هايلمان: رسائل مشفرة كثيرة بدرجة لافتة في الساعات الأخيرة. فضلا عن رسالتين عملياتيتين عاجلتين في شبكة البحرية، ورسالة في شبكة الجيش.

03.15: مقدم الأركان الثالث شتاوبڤاسر (مجموعة الجيش ب) / الرائد دورتنباخ: إعلام حول الأخبار المتوفرة إلى الآن.

03.19: قيادة الجيش الأول العليا (جنوب فرنسا) تبلغ الرائد دورتنباخ أن الوضع هادئ.

03.50: قائد الاستطلاع الاستخباري، الشعبة الخامسة المقدم ريختر / المقدم هايلمان: الاتصالات اللاسلكية في إنجلترا تضعف ببطء منذ الساعة 02.00. الحالة في الساعة 10.50: منذ 02.35 اختفت اتصالات القيادة اللاسلكية فجأة (بعد تعميم الرسالة العملياتية الملحة). الاتصالات على الموجات القصيرة عادية على الأرجح.

03.50: مخابرة الرائد دورتنباخ / المقدم جوتزه: قصف شيربورج، الإنزال سيتم في مصب أورنه.

04.50: مخابرة الرائد دورتنباخ إلى «الجيوش الأجنبية غرب» (المقدم فيتسر): يعلن الرائد كل ما تم الإبلاغ عنه إلى الآن. ليس الوضع جديا وخطير.

استمر الأمر أكثر من خمس ساعات أخرى، قبل أن تعرف القيادة العليا غرب حقيقة ما كان يجري. لقد نجحت مفاجأة القوات المسلحة الألمانية، ليس بسبب البحر المضطرب وحده، الذي لم يتوقع أي «خبير» حدوث إنزال فيه، ولم تتوقعه أيضاً البحرية بالذات. صحيح أن الإنزال في قوة ريح تبلغ 7 درجات، كان مخاطرة غير مألوفة، لكن هذه المخاطرة بالذات هي التي حسمت الأمر في النهاية. كما أن الأحوال الجوية السيئة هي التي جعلت الاستطلاع الجوي، المقيد بدرجة غير مألوفة، أعمى تماما، وشلت الاستطلاع البحري. هكذا خرج جهاز الاستخبارات الألماني المتخصص بالعدو تكتيكيا من المعركة مع بدء الغزو، واصيبت القيادة الالمانية العليا والأعلى عمليا بالعمى، وغدت «صماء» بسبب الصمت اللاسلكي، الذي كان يسود «هناك». وعلى كل حال، فإن الاستطلاع الالماني كان يجلب منذ أشهر معلومات قليلة القيمة حول الحشد في جنوب إنجلترا، بعكس ما كان يحصل عليه من معلومات حول الهجمات السوفياتية: أما السبب، فهو أن الناس في إنجلترا كانوا يستخدمون الهاتف، بينما كان استخدامه مقيدا جداً لدى الروس.

هذه العوامل مجتمعة، كانت كارثية بالنسبة للتقويم العملياتي للوضع، فأتت مناورات تمويه وحجب «عملية فورتيتود» أكلها هنا أيضاً. ومع أن الدفاع على شاطئ النورماندي كان قد تعزز في ما يخص بالقوات، إلا أن القائمين عليه صدقوا أطروحته، التي رأت: أن الغزو الرئيس سيتم على شواطيء القنال، فاستنفرت الجيش الخامس عشر، بينما اكتفت مجموعة

ماركس على النورماندي بإعلان استنفار من الدرجة الثانية. لقد أخطأ الألمان في قراءة نوايا العدو الحقيقية، وعجزوا عن كشفها، فكان عليهم الانتظار، ريثما تكشف نفسها بنفسها، وخسروا بذلك وقتا ثمينا يستحيل تعويضه، هو ليلة السادس من حزيران/ يونيو 1944، التي كان ممكنا فيها وحدها القيام بتحركات كبيرة للقوات وشن هجمات مضادة بوحدات قوية. في هذه الحالة، كان يجب أخذ نار مدفعية سفن العدو الثقيلة الرادعة بالحسبان، التي غرق فيها فيما بعد الهجوم المضاد للفرقة 21 المدرعة.

بقيت كتلة جيش العماد فون سالموث الخامس عشر، بفرق مشاته الأربع عشرة، التي كان نصفها ثابتا وغير قابل للاستخدام العملياتي، مجمدة في شمال فرنسا. لئن كان من غير الممكن تجاهل نقاط التشابه بين الوظيفة التعطيلية لخط ماجينو سنة 1940 ولجدار الأطلسي سنة 1944، فإنه لا بد من القول أيضاً إن ما حسم الأمور هو في نهاية الأمر التضليل المنهجي، الذي مورس على عملية «فورتيتود». عندما أرسلت قيادة الجيش الخامس عشر العليا بعض الفرق المتحركة ذات القدرة القتالية العالية إلى جبهة النورماندي، كانت خطوتها متأخرة جدا، لأن الحلفاء كانوا قد أقاموا رأس إنزال، وسعوه بعد حين إلى قاعدة عملياتية برية، ثم عمقوه وأقاموا فيه مطارات لطائراتهم القاذفة المقاتلة. وبعد المرافئ الصنعية، كسبوا باستيلائهم على شيربورج مرفأ كامل البناء، تمكنوا من وضعه في الخدمة بعد بعض الوقت. بفضل هذه النجاحات، حقق الأميركيون في نهاية تموز/ يوليو اختراقا في اتجاه الجنوب، بعد معارك شديدة بدا فيها تفوقهم المتنوع الأوجه على الفرق الألمانية، التي كانت أدنى قوة وصعبة التحريك في كتلتها الأكبر، تفوق زادته سيطرة طيرانهم الجوية المطلقة. لم يشأ هتلر تصديق هذا، حتى بعد كارثة فاليز وإخلاء فرنسا الشبيه بالهرب، الذي حدث بعدها مباشرة، وإلا لما شن في

كانون الأول/ديسمبر من سنة 1944 هجوم الأردين، الذي قدم فرصة للاستخبارات الالمانية مكنتها من ممارسة عمليات خداع وحجب وستر، فاقت في حذقها ما عرفته عملية «فورتيتود»، لم يفها تاريخ الحرب في إطاره العام حقها إلى يومنا هذا، باستثناء ما جاء في دراسة في الخارج المحايد، ظهرت في دار نشر تكاد تكون غير معروفة[89].

obeikandl.com

الفصل الثاني

هجوم الأردين: السرية الكاملة

الانتقام لـ «أوفرلورد»

نجح غزو 1944، المسمى أوفرلورد، في أن يكون مفاجأة للألمان، بل انه نجح بإتقان قل نظيره في تاريخ الحرب. لكن هجوم الأردين الألماني، الذي وقع في العام نفسه، تفوق عليه، في كل ما يتعلق بهذا الجانب، حتى ليجوز القول مع شيء من التقييد: إن أجهزة الاستخبارات العدوة في الغرب بزت بعضها البعض مرة أخرى في سنة الحرب قبل الأخيرة، فخدع الحلفاء الألمان أول الأمر، ثم خدع الألمان الحلفاء. غير أن الظروف الألمانية كانت مختلفة في أحد جوانبها عن ظروف الطرف المقابل، ذلك أنه لم يوجد في القوات المسلحة الألمانية أو في أركان قيادتها رئيس حقيقي للاستخبارات المتخصصة بالعدو، مثلما كان الأمر في أركان أيزنهاور. ولم يوضع الإعداد الاستخباري لهجوم الأردين الألماني في أواخر سنة 1944 بين أيدي أركان خاصة كبيرة مثلما وضعت مثلا عملية «فورتيتود»، بل ألقي عبئها بالأحرى على عاتق شعبة نائب رئيس الأركان للعمليات (جيش) في أركان قيادة القوات المسلحة، التي تحمل قادتها المسؤولية عنها، وخاصة منهم ضابط شعبة الأركان الثالثة السابق لدى القائد الأعلى غرب، ثم عقيد الأركان العامة فيلهلم ماير ـ ديترينج، الذي وظف خبرة سنوات استخبارية أربع، ليجعل من هجوم الأردين مفاجأة ناجحة. ثمة أيضاً حافز تعويضي غير واعٍ ربما لعب

دوره في اللعبة، هو الرغبة في محو جرح السادس من حزيران/ يونيو 1944 بطريقة تشبه على وجه التقريب ما حدث بعد سقطة بداية حرب 1914، التي جعلت من الجنرال اللاحق فيلجيبل أستاذ الاتصالات الاستخبارية العملياتية، والمؤسس الحقيقي للاستطلاع البرقي الألماني.

كان التحضير لهجوم الأردين الألماني نسيج وحده في كل ما يتعلق بالسرية والتمويه، والحجب. وهو إنجاز ثمنته دراسة وثائقية كتبها سويسري هو ضابط الاستخبارات والمكافحة المقدم في الأركان العامة ف. شاوفلبرجر[1]، وتعتبر برهانا على تضامن المتخصصين الأوربيين في هذا المجال.

قدم شاوفلبرجر لدراسته بنظرة عامة، ثم أورد تغطية وثائقية تفصيلية للتدابير التي اتخذت من أجل إضفاء السرية على تحضيرات الألمان للهجوم، وحققتها بالفعل، بما أنه لم يكن هناك، في كانون الثاني/ يناير من سنة 1944، مواقع ألمانية رخوة، بدءا من أركان قيادة القوات المسلحة مرورا بقيادتها العليا وصولا إلى الأركان العامة للقائد الأعلى غرب ولمجموعة الجيش ب، وكذلك لدى الأركان المشتركة في الهجوم لجيش الـ إس إس السادس المدرع، وللجيشين المدرعين الخامس والسابع. هذه حقيقة يجب التأكيد عليها، فأين كان هنا الخونة والجواسيس والعملاء؟. إنهم لم يكونوا في الأركان العليا، ولم يكن بوسعهم أن يكونوا فيها. وأين كان الجواسيس الصغار، الذين كانوا يتسكعون على الأرجح وراء خطوط الألمان؟. إنهم لم يعرفوا إلا القليل، وعرفوا غالباً أشياء ضللتهم. وكان مؤلف هذا الكتاب، المراسل الحربي فون شرام، الذي نقل آنذاك إلى رئاسة أركان القوات المسلحة وألحق بالعماد يودل كضابط مرافق، شاهدا على تدابير السرية هذه قبل الهجوم، فقد عاشها عن كثب، ورآها بأعين مقر الفوهرر الرئيس الصغير

(1) انظر فهرس المراجع.

المسمى «عش النسر» في تاونوس، مثلما رأى الانهيار الجسدي والفكري السريع للقائد الأعلى خلال الهجوم، وعقب فشله.

السرية

ربما حدث ما سأقوله مطلع تشرين أول/أكتوبر من 1944. كنا لا نزال آنذاك في مقر الفوهرر الرئيس في بروسيا الشرقية، عندما اكتشفت في غرفة عمليات يودل خريطة كبيرة المقياس لمنطقة الإيفل ـ أردين. لقد بدا وكأنها استخدمت قبل فترة قصيرة، ثم ركنت جانبا. تأملني يودل، ثم ابتسم ووضع إصبعه على فمه. فيما بعد، علمت أن من اطلعوا على التحضيرات ألزموا بصمت أشد. حسب توجيه أصدرته القيادة العليا للقوات المسلحة يوم 19/ 1/ 1940، وقعته المكافحة باعتبارها جهة مسؤولة عنه، كانت اللائحة التالية ملزمة بالنسبة للتخطيطات العملياتية[1]:

إن الضباط، الذين يكلفون بمعالجة نوايا وتدابير عملياتية، يجب أن يعينوا كل مرة بأسمائهم من قبل قادتهم. أما عددهم فيجب أن يكون محدودا قدر الإمكان في كل حالة من الحالات، ويجب أن يحدد بعد تدقيق مفعم بالمسؤولية. ويخضع الضباط الذين يقع الاختيار عليهم للالتزامات الخاصة الآتية المتعلقة بالسرية:

أ) التقيد من دون قيد أو شرط بالصمت، حتى تجاه الضباط في مكان عملهم، ممن لا يتم اختيارهم بالإسم كمشاركين.

ب) التقيد بالصمت تجاه الرؤساء في مواقع ودوائر العمل الأخرى، وتجاه الأقرباء والأصدقاء... الخ.

(1) أخذت مجمل الاوامر والتعليمات، التي سيتم الاستشهاد بها هنا، بحرفيتها عن دراسة شاوفلبرجر.

ج) الإعلان عن أي خروج عن القواعد يصلهم علم عنه.

د) التكتم على الأوامر التي تتعلق بتدابير ونوايا عملياتية وتتضمن معطيات حول هدفها وغايتها، وخاصة عند إصدارها إلى مواقع دنيا. والتخلي عن ذكر معطيات حول مواعيد تنفيذها.

ثم ذهبت الجهة الآمرة خطوة أخرى، في أمر صدر يوم 1/ 11/ 1944 وكرسته قيادة القوات المسلحة / وأركانها (قسم العمليات ـ جيش) لهجوم الأردين، فقالت ـ بين أشياء أخرى ـ:

«يجب تحديد دائرة المشاركين، الذين سينخرطون انخراطا تاما في العملية (بمن فيهم صف الضباط، والجنود والمساعدات لدى الأركان) بالاسم... كما يجب إلزامهم خطيا بنواظم العمل. أما الضباط من خارج هذه الدائرة، المطلوبون للعمل (أسلحة خاصة) فيسمح بإدخالهم فيه عند قيامهم بجلب مستندات، على أن لا يعرفوا حجم العملية وتوقيتها وقصدها... تشفر الرسائل البرقية وتعتبر قضية قيادية مبدئيا». وقد كان على رئيس استخبارات القيادة العليا غرب، العميد أوبرهويزر، توقيع الالتزام الآتي حول سرية عملية «مارتن»، الإسم السري الأصلي لهجوم الأردين:

«أطلعني رئيس الأركان العامة للقيادة العليا غرب اليوم على السمات الكبرى لنوايا مجموعة الجيش (ب)، ولفت نظري بإلحاح شديد إلى الأهمية الخاصة للسرية المطلقة تجاه أي شخص، بمن في ذلك رئيس أركاني. وفرض علي التكتم الأقصى بخصوص التدابير المطلوبة في المجال الاستخباري. وإنني لأعي أن أي خرق للالتزام المفروض علي سيواجه بأقصى العقوبات، التي تصل إلى الإعدام».[1]

(1) شاوفلبرجر، ص 30.

إلى ذلك، أمرت قيادة القوات المسلحة / ورئاسة أركانها أن تتم معالجة «نوبة الحراسة على الراين» - الإسم السري النهائي للهجوم - في قاعات خاصة، وأن يتم حفظ الوثائق والخرائط في أماكن منفصلة، بل إنها ذهبت في النهاية إلى درجة إصدار توجيه بكتابة الأوامر التمهيدية للعملية بطريقة مختلفة كل الاختلاف عن الطريقة المعتمدة حاليا في كتابتها، تغفل، قبل كل شيء، المعطيات المتعلقة بنوايا القيادة. إلى أن يقول بند آخر:

«تصدر أوامر العملية الكاملة في وقت متأخر قدر الإمكان، ويجب، عوضا عن ذلك، الإكثار من الأوامر الأولية، على أن تخلو تماماً من ذكر ما يتعلق بالنوايا، وتقتصر على التفاصيل الضرورية لتحضيرها تكتيكيا وتقنيا». وقد باح الأمر الصادر عن رئيس الأركان العامة للقائد الأعلى غرب بهدف هذه التدابير، حين قال:

«من الضروري أن يضع كل ضابط أركان، من حيث المبدأ، السؤال الآتي أمام عينيه، حين يقوم بإعطاء الأوامر ونقلها: ما الضرر الذي يمكن أن يحدث، لو عرف العدو بالأمر ؟».

أخيراً، تم تغيير كلمة التعارف، فقد بدأ التحضير للهجوم، كما سبق أن قلنا، تحت إسم تعارف هو «مارتين»، ثم أصدرت الأركان العامة للقوات المسلحة يوم 1/ 11/ 1944 التوجيه الآتي:

«كلمة التعارف بالنسبة للعملية هي «نوبة الحراسة على الراين». تحتفظ القيادة العليا للقوات المسلحة ورئاسة أركانها بحق تغيير كلمة التعارف بعد حين». كان الهدف من «الحراسة على الراين» الإيهام بوجود عملية دفاعية، أو بإجراء حشد من أجل عملية كهذه. وقد جاء في البند الأول من إعلانات الالتزام، التي أمر بها يوم 10/24 رئيس أركان القيادة العليا غرب، العميد فيستفال، ما يلي: «أعلمت أن المعركة الدفاعية في الغرب تتطلب أعلى

درجات السرية، من أجل حمايتها، وأن جميع أنواع الاتصالات الهاتفية حول «مارتين» ممنوعة. أما البند (و) فيقول: «إن أي خيانة تنجم عن الإهمال، كالمسامرة الهاتفية حول «مارتين» تعني عقوبة الإعدام».

نقل الأوامر

أثبتت مجريات الحرب العالمية الثانية أن نقل الأوامر يمكن أن يكون أحد نقاط ضعف السرية، ففي العاشر من كانون الثاني/ يناير سنة 1940 هبطت طائرة بريد محملة بأوامر وتعليمات الحشد «للحال أصفر» اضطراريا في بلجيكا، وفي سنة 1943 هبطت طائرة فيزلر شتورش في ساماندان في أنجادين السويسرية وعليها معطيات مهمة حول سلاح الجو الألماني. لذلك، تم منذ 12/ 7/ 1942 تقييد نقل المعلومات بواسطة الطائرات، وصدر أمر بإبقاء الاسلحة مهيأة للرمي والمواد الحارقة جاهزة للاشتعال، عند نقل أشياء سرية في السيارات. إلى هذا، كان استخدام الهاتف للحديث عن مقاصد عملياتية ممنوعا بصرامة. وفي الأول من تشرين الأول/ أكتوبر أمر القائد الأعلى غرب بمراقبة غير دورية لجميع الاتصالات الهاتفية في أركانه الخاصة، بواسطة ضابط شعبة الأركان الثالثة / وضابط مكافحة التجسس، حيث كان عليهما إمساك دفتر خاص بالمراقبة، على أن يتم للتو قطع اتصال من يقومون بانتهاك خطير للسرية، والإبلاغ عنهم.

أما بالنسبة إلى نقل المعلومات لاسلكيا، فقد أصدر رئيس الاستخبارات غرب آنذاك العميد جيملر يوم 29/ 2/ 1944 التوجيه الآتي، الذي يمثل نوعا من تقويم يشمل التجارب التي تم اكتسابها خلال الحرب، أنشره هنا بنصه الحرفي، لا سيما وأنه تم التذكير به مرة أخرى قبل هجوم الأردين[1]:

(1) شاوفلبرجر، ص 36 وما يليها.

«يعمل استطلاع العدو اللاسلكي عن بعد، تماماً مثلما نعمل نحن، بأساليب الرصد، وتحديد الاتجاهات والمواقع، والتقويم، والكشف، وفك الشيفرات. وهو في وضع يمكنه من تحديد مواقع لاسلكي قياداتنا بدرجة عالية جداً من الدقة، وفي حالتي الثبات والحركة، أما تحديد الاتجاه النقطي فغير ممكن.

ويقوم الاستطلاع المعادي أساسا بعمليات قنص للإذاعات الناطقة وللنصوص الصريحة ضمن ألويتنا. فإن نجح في استغلال أنشطتنا اللاسلكية لاستخلاص استنتاجات حول مقاصدنا، تكون إذاعتنا عندئذ قد أضرت أكثر مما أفادت.

لعل أحد أكثر الأمثلة شهرة على ذلك الحديث الصريح عن انتشارنا استعدادا لمشروع القلعة صيف 1943، الذي عرف الاستطلاع اللاسلكي الروسي منه بوضع قواتنا وحدد مواقعها، كما تؤكد مستندات وقعت في أيدينا قبل بدء الهجوم، وهو انتشار كان على النحو الآتي: القيادة العليا للجيش الثاني، القيادة العامة للجيش الثالث عشر، ويأتمر بإمرتها الفرقتان 6 و7 والفرقة الأولى المدرعة، وفرقة الـ إس إس المدرعة «أدولف هتلر» و«رأس الأموات». على العكس من ذلك، ظل انتشار الجيش السابع عشر قرب وجنوب كريمنتشوج، استعدادا لعبور الدنيبر، سريا بالنسبة إلى الروس بعد معركة أومان في آب/أغسطس من سنة 1941، وكذلك انطلاق الجيش الأول المدرع من رأس الجسر، نتيجة الصمت اللاسلكي، الذي التزم به الجيش السابع عشر والجيش المدرع الأول خلال تقدمهما وانتشارهما». وقد تم التذكير هنا مرة أخرى بضرورة التقيد الشديد بالانضباط اللاسلكي، والتأكيد «أن استخدام اللاسلكي في المعركة والحركة لا مسوغ لهما، إلا عندما تنقطع الاتصالات السلكية، أو يعجز استطلاع العدو الاستخباري عن

تقديم صورة موثوقة حوله، بسبب تبدل الأوضاع المستمر. في هذه الحالة حصرا، يكون اللاسلكي مفيدا ولا يلحق بنا الضرر، فنستخدمه».

التعامل مع الوثائق

إلى جانب اللاسلكي، كانت الأوراق التي يتم غنمها واحدة من أهم وأوثق مصادر معلومات الاستخبارات المتخصصة بالعدو، خلال الحرب العالمية الثانية. ولطالما فكر كل طرف قبل الحرب في طرق تمنع وقوع الأوامر العملياتية والخرائط الميدانية في يد العدو، حتى إن الفوهرر أصدر يوم 12/ 7/ 1942 أمرا بمنع اصطحابها عند القيام بأسفار على الجبهة، يشمل دفاتر الملاحظات، واليوميات، والرسائل، التي تتضمن ملاحظات مهمة بالنسبة إلى العدو. في روسيا، استطاع الألمان معظم الأحيان استخلاص استنتاجات قيمة من أوراق غنموها. وأورد أمر يومي صدر يوم 21/ 4/ 1944 عن القيادة العليا غرب مثالا على ذلك، دوّن خلاله صف ضابط، بناء على محادثة شارك فيها، ملاحظات حول الخسائر في الضباط والاحتياطي المتوفر منهم، أبقاها بحوزته، ثم وقعت ووثائق أخرى في يد العدو خلال إغارة قامت بها دباباته، فقدمت له معلومات على درجة كبيرة من الأهمية. بدوره، غنم الجانب الألماني تقريراً عن وضع احد الجيوش الكندية، كان بمثابة تأكيد لقيمة الملاحظات السابق ذكرها، وحافزا لزيادة المنع تشددا، ولإعلان أن الضابط المهمل يمكن أن يتعرض لمحاكمة ميدانية.

تدابير التمويه

لم يكن هذا كله غير أوامر سلبية، أريد بها الحيلولة دون معرفة العدو بالنوايا الألمانية، أكان ذلك من خلال اللاسلكي، أو اعترافات الأسرى، أو الأوراق التي قد يغنمها. لكنه اتخذت، فضلا عن ذلك، التدابير الأكثر

تنوعا، لتضليل العدو في كل ما يتعلق بمقاصد الألمان، ووضعت خطة تمويه خاصة، عبر عن فكرتها الرئيس بأمر صدر يوم 5/ 11/ 1944:

يأمر الفوهرر بما يأتي:

الفكرة الرئيسة للتمويه:

«تتوقع القيادة الألمانية وقوع هجوم كبير هذا العام ضد خط كولن / بون. ستشكل، لضرب مجنبة هذا الاختراق المعادي من الشمال والجنوب، مجموعتا هجوم مضاد قويتان، الأولى شمال غرب كولن والثانية في الإيفل. لذا، يجب أن ينصب الاهتمام عند تنفيذ التمويه على ستر القوى المحتشدة في الإيفل، والإيحاء بوجود عدد أكبر من القوات في منطقة شمال غرب كولن، مما هو موجود فيها فعليا»[1].

ثم أصدر رئيس أركان القائد الأعلى غرب، بالتطابق مع هذا، أمرا يوم 14 تشرين الأول/أكتوبر حول تفاصيل تضليل العدو، جاء في بنده الأول:

«يجب، بدءا من 20/ 11/ 1944، الإيحاء بوجود جيش محتشد في منطقة رايدت / يوليس / كولن قوامه من 8 إلى 10 فرق»

وحدد الأمر بدقة قيادات «جيش الأشباح» العامة، وأرقام دباباته، وفرق المدرعات والمشاة التابعة لها. وقال في بنده الثاني:

من أجل تضليل العدو، يجب تطبيق ما يأتي:

أ) التضليل باللاسلكي، أقله حتى مستوى قيادة فرقة.

ب) التضليل بالقوات: كإيراد عناوين خاطئة، ورفع أعلام مزورة، ووضع علامات تعارف ونصب إشارات طرق جديدة.

(1) شاوفلبرجر، ص 40 وما يليها.

ت) التضليل بالنقل: استخدام كادر مسبق الطلب، إشارات مزورة على قطارات النقل والإمداد، نداءات وإعلانات خاطئة في محطات القطارات، لوحات مضللة فيها وفي مراكز التوجيه والتأهيل على الجبهة... الخ.

ث) التضليل بالمدفعية المضادة للطائرات: إطلاق نيران مدفعية مضادة أقوى على طائرات الاستطلاع المعادية في منطقة التضليل.

ج) قطاعات الجبهة:

إبلاغ معلومات تفصيلية حول الحشد التضليلي بواسطة الجبهة مباشرة.

د) التضليل بالمكافحة:

إبلاغ أوامر حشد خاطئة، ونقل مستندات مزورة حول تنظيم القوات وخطط النقل والتموين.

ثمة هنا، إذن، مناورة تضليلية تم التفكير بأدق تفاصيلها. وقد ذكرت القيادات العليا بصورة متكررة الأركان، والدوائر، والقوات التابعة لها بضرورة اتخاذ تدابير تضليلية تتعلق بنواياها الخاصة، للحيلولة دون وقوع خيانة يرتكبها من يفرون إلى العدو.

وقد أصدر رئيس اتصالات استخبارات القوات المسلحة في قيادتها العليا أمرا دقيقا حول التضليل باللاسلكي قبل شن أي هجوم، قرر فيه، بين أمور أخرى[1]:

تؤمر تلك الدوائر والوحدات القيادية، التي لن تستخدم في الجبهة الدفاعية، بالتزام صمت لاسلكي من اللحظة التي تتقدم فيها إلى المنطقة جنوب خط كولن / آخن، وتؤمر كذلك بوقف اتصالاتها اللاسلكية التدريبية المسموح بها.

(1) شاوفلبرجر، ص 42 وما يليها.

يفرض بدءا من اليوم إكس ناقص 3 على وجه التقريب تقييد لاسلكي مفاجئ أقصى على الوحدات شمال خط كولن / آخن. ويفرض قدر المستطاع تقييد مماثل على اتصالات القوات البرقية أيضاً.

كان التضليل الصوتي في ساحة المعركة جديدا كل الجدة، لم يسبق أن طبق حسب علمي بصورة منهجية قبل ذاك. لجعله ممكنا، طورت شعبة الدعاية في القيادة العليا للقوات المسلحة اسطوانات خاصة بالحاكي تستخدم مكبرات صوت القوات، فتثير الوهم بوجود دبابات، وقوافل سيارة، وسيارات ثقيلة آيبة وذاهبة، وعمليات إفراغ تجهيزات هندسية... الخ.

وكان هناك أيضاً إسطوانات ضجيج قيد التحضير.

تدابير تضليل خاصة بالحشد من أجل الهجوم

لم يسمح للوحدات التي تقدمت لشن الهجوم، ووصلت بعد العاشر من تشرين الأول/أكتوبر إلى منطقة انتشارها، باستخدام إشارات مفتوحة، وكان عليها حجب مواقعها القتالية بعناية، والامتناع بدءا من 20 تشرين الثاني/نوفمبر عن القيام بأي نشاط استطلاعي بالقوات، لتحاشى تبديد عامل المفاجأة، إذا ما حدثت خسائر وسقط أسرى في يد العدو. إضافة إلى ذلك، تم في الأيام الأخيرة السابقة للهجوم سحب المراكز القتالية المتقدمة، التي كان هناك خطر من أن تكشف. وصدرت الأوامر بإبلاغ القيادة بأسرع الطرق الممكنة عن أي مفقود أو فار، وكان على الأركان العليا، التي تستشكف الأرض على الخط الأمامي، أن تزيل عن بذاتها أي إشارات (زينة المعاطف، أو خط التوشية الأحمر على البنطال)، أو أن تحجبها. أخيرا، ذكر أمر القيادة العليا للقوات، الصادر يوم 1/ 11 باتخاذ أقصى تدابير الحيطة والحذر عند وضع الخرائط، وقرر إصدار الخرائط الخطرة قبل أيام قليلة من اليوم إكس.

الحشد من أجل الهجوم

كان الحشد هو أكبر مشكلات السرية عند الإعداد لهجوم الأردين، بالنظر إلى صعوبة حجبه عن العدو. بيد أن الألمان كانوا يستطيعون تضليل العدو ومنعه من معرفة حقيقة مقاصدهم، لذلك قال أمر صدر يوم 5/ 11/ 1944 عن القيادة العليا للقوات المسلحة بصدد تحركات الحشد:[1] «تنفذ جميع المسيرات، التي تتجه نحو الجبهة، في الليل. ويجب القيام بحجب المسيرات التي تتجه من منطقة شمال غرب كولن إلى منطقة الانتشار الأصلية لعملية «حراسة على الراين». ويجب أن تحافظ منطقة شمال غرب كولن، التي سيتم إخلاؤها، على صورة منطقة تشهد انتشارا وتحركات كثيفة للقوات. وتنظم القيادة العليا غرب مسيرات تأخذ أشكالا استرخائية في منطقة شمال غرب كولن، بعد سحب قوات الهجوم منها». في الختام، تم إيلاء اهتمام خاص لتقدم القوات التالي إلى مواقع الهجوم الأصلية، حيث يجب في اليوم الرابع قبل الهجوم تجميع مجمل الوحدات والقوات في المناطق المخصصة «للحشد التدخلي»، على أن تجر الخيول المدفعية الخفيفية والمتوسطة إلى مواقعها، بمعونة قوات خيالة خاصة تابعة للألوية الثابتة، لتفادي ضجيج المحركات على مقربة من الجبهة. أما إدخال المدفعية الثقيلة فيتم وفق خطة خاصة تستخدم تدابير تؤدي إلى حجب الضجيج، منها تنظيم طلعات جوية يقوم بها سلاح الجو على مجمل جبهة الغرب خلال الدخول الليلي لوحدات هجوم الأردين.

خضعت هذه التدابير جميعها لرقابة صارمة، وتلقت جيوش مجموعة الجيش (ب)، التي نفذت الهجوم، ضباطا متخصصين في مراقبة عمليات

(1) شاوفلبرجر، ص 53.

الستر، لديهم تفويض بمنع أي اتصال نهاري قد يلفت الأنظار، وبالتدخل بفظاظة، إن اقتضى الأمر. واهتمت مواقع تنصت وجهت أجهزتها إلى الجبهة الصديقة بالأصوات المشبوهة لدى إدخال المدفعية بالسيارات وجلب الذخيرة، وسهرت على تحاشي أي اتصال لا لزوم له. لقد كان يجب أن تبدو منطقة الحشد بأسرها خالية قدر الإمكان من القوات، فينجح الحجب والتضليل وتنجح معهما المفاجأة. والحق، إن هجوم الأردين وقع على الأميركيين وقوع صاعقة سقطت من سماء صافية. ولم يشوش أثره المباغت غير مشروع «تدخل»، قام على استخدام تضليلي لقوات سرية ترتدي بذات العدو. يقول شاوفلبرجر[1]: » كان على فوج الدبابات 150، الذي تنكر من رأسه إلى أخمص قدميه في ثياب جنود أميركيين، مكلفا بتأمين جسر غير مدمر على نهر الماس إلى حين وصول طلائع القوات الألمانية المهاجمة، وبإثارة الاضطراب والفوضى لدى الأميركيين. وقد تسبب تسليح وحدة على هذا القدر من القوة بتجهيزات أميركية كان الألمان قد غنموها، بمصاعب كبيرة. وقد فشل الهجوم الكبير ضد جسر الماس، بل ولم يصل الهجوم في أي مكان إلى النهر، بينما أحرزت وحدات قتالية صغيرة تنكرت في ثياب جنود يركبون سيارات جيب أميركية، نجاحات مذهلة، بما أن الشك الذي انتشر بين الأميركيين أضر بشدة بطريقة قيادتهم للمعركة في سائر أصعدتها». ماذا قال الشهود على الجانب الآخر حول فاعلية تدابير السرية والستر والتضليل الألمانية؟. فوجئ القائد الأعلى البريطاني المارشال مونتغمري بنبأ الاستنفار بينما كان يلعب الغولف في آيندهوفن، فطار عائدا إلى مقر قيادته المتقدم في تسونهوفن[2]. أصاب الهجوم، الذي أخذ شكل إغارة، جبهة الجيش الأول الأميركي (العميد

(1) شاوفلبرجر، ص 22.

(2) مارشال مونتغمري: مذكرات، الجزء الثامن عشر، فصل: المعركة في الأردين». ص 344 وما يليها.

هودجز) أساسا، التي انتشر فيها الفيلق الثامن الأميركي، وكانت قليلة القوات في منطقة الأردين، كما كان الألمان يعرفون، وحدثت ثغرة عميقة فيها حتى مساء السادس عشر من كانون الأول/ ديسمبر. لم يكن أيزنهاور أو مونتغمري يعتقدان بإمكانية وقوع هجوم ألماني كبير، لأن «الوسيلة الوحيدة، التي أراد الحلفاء معرفة ما يجري بواسطتها كانت الاستطلاع الجوي، وهذا أصيب بالشلل خلال الأيام الحاسمة السابقة للهجوم، بسبب سوء الأحوال الجوية. بينما لم تصلهم معلومات بواسطة عملاء ينشطون وراء الجبهة الألمانية، كتلك التي كانت تصلهم بوفرة كبيرة في فرنسا، لأن الجبهة كانت جميعها تقريبا على الأراضي الألمانية»[1]

يلخص شستر فيلموت حكمه على النجاح الألماني المفاجئ في الوصف الآتي[2]: «عندما بدأ هجوم الأردين، رد الحلفاء بالدهشة وعدم التصديق، لأنهم كانوا قد اعتادوا كثيراً فكرة أن قوات ألمانيا المسلحة توشك أن تنهار، فلم يعتقدوا بقدرتها على شن هجوم من الحجم، الذي رسمته البلاغات الأولى. ثم تمزقت بعد ذلك الاتصالات، وحلت الشائعات محل الأخبار... ثم ما لبثت أنباء يناقض بعضها بعضا عن بعض القطاعات، صحبها نقص كامل في المعلومات عن قطاعات أخرى، أن أثارت القلق والحيرة في المناطق الخلفية، وخاصة في مقر قيادة الجيش الأميركي الأول، الذي اضطر قائدة إلى الاعتراف ليلة الثامن عشر من كانون الأول/ ديسمبر «أن خط العدو لا يسمح بتحديده، لأن الجبهة في تغير مستمر ومجرياتها غامضة إلى حد ما». ويضيف تقرير أورده فيلموت: «لم يستطع الجنرالات والآمرون من القادة الحصول على معلومات تمكنهم من جمع مزق اللعبة

(1) هيرمان يونجه: هجوم الأردين 1944/ 1945، ص 148.

(2) شستر فيلموت: الصراع على أوروبا، فرانكفورت على الماين 1954، ص 629 وما يليها.

المحيرة في لوحة عامة. وملأت القوات المتراجعة الطرق وسدت دروب التعزيزات الذاهبة إلى الجبهة. وكان الهلع يسيطر لبعض الوقت على الوحدات، بمجرد أن يشيع بينها أن الألمان قادمون... فكانت تتخلى عندئذ عن تجهيزات كثيرة صالحة للعمل وفي أفضل حال».

أثبتت تدابير السرية والستر والخداع جدارتها، مثلما سبق لها أن أثبتت جدارتها عند التحضير لعملية «أوفر لورد» مطلع العام. لذلك، من الضروري طرح اسئلة تتجاوز هذه النقطة، هي: أين كانت الجاسوسية الحليفة الناجحة؟. ماذا حدث لاستطلاع الجبهة؟. وأين كانت يقظة القوات العاملة في الخط الأمامي؟. لم تنتهك السرية على الجانب الألماني قبل هجوم الأردين، فلم يوجد أي فار أو خائن، ولم يوجد أي عميل لاسلكي في المنطقة الخلفية باستطاعته التنبيه إلى الخطر الداهم من خلال معطيات ملموسة. لم يكن هناك منطقة رخوة واحدة، سواء في قيادة القوات المسلحة العليا أم في رئاسة أركانها. و لم يفش مدير الرايش بورمان أي سر بدوره، أو يوصله إلى الخارج، رغم أنه كان قد انضم إلى هتلر في مقره الرئيس في «عش النسر». لقد تكتم القوم في مراكز ومواقع ودوائر القيادة، ولم يبوحوا بأي سر، وفشلت سائر وسائل الأجهزة الاستخبارية الأخرى، نتيجة الاستخدام الواعي والمنهجي لتدابير ووسائل مضادة ومجربة، واجهت الاستطلاع اللاسلكي بالخداع اللاسلكي، وأقوال الفارين والأسرى المحتملين بالتضليل بالقوات، واستطلاع الجبهة المعادي بستر الحشد وتقسيمه إلى منطقتين: واحدة مورس فيها الخداع والأخرى الستر، فأثبت التجسس التقليدي عجزه التام في مواجهة هذا النظام من العناصر المساعدة المدروسة. سيبقى هجوم الأردين الألماني في كانون الأول/ ديسمبر من سنة 1944 مثالا في تاريخ الحرب، يشهد على الذكاء والسرية والانضباط إبان تحضير العمليات الكبيرة، مع أنه فشل، كما تقول الوثائق والتحليلات المتوفرة جميعها.

obeikandl.com

الفصل الثالث

الصدمة

وصفنا كيف فاجأ الإنزال القيادة الألمانية في السادس من حزيران/ يونيو سنة 1944، وحاولنا أن نعيد بالتفصيل رسم تدابير الحلفاء، التي أفضت إلى هذه المفاجأة. لكن صراع أجهزة الاستخبارات، الذي ميز سنة الحرب ما قبل الأخيرة في الغرب، يتطلب أيضاً عرض المفاجأة التي أصابت الحلفاء، نتيجة هجوم الأردين الألماني. هنا، تبدو بعض الأمور متساوية، رغم أن الفروق المبدئية هي التي تفرض نفسها، بطبيعة الحال، خاصة وأن القيادة العليا غرب كانت تأخذ في اعتبارها سنة 1944 إمكانية قيام الحلفاء بإنزال - عاجلا أم آجلاً - وأنها أعدت نفسها لمواجهته. أما هجوم الأردين فقد نزل على الأميركيين نزول صاعقة من سماء صافية، أو فلنقل من سماء لم يبد عليها أنها تضمر عاصفة هجومية.

كانت القوات الألمانية تقاتل في خريف سنة 1944 على الأرض الألمانية. ذلك جفف مصادر المعلومات، التي كانت تتدفق بغزارة في فرنسا، حيث كان السكان المحليون يغذونها، من جهة أخرى، فعلت السرية والستر والخداع فعلها هنا، مثلما فعلت فعلها لدى إنزال الحلفاء في النورماندي. غير أنه لم يكن هناك في الأردين بحر يفصل العدوين، فكانت المسألة الحاسمة بالنسبة لتأثير العمل المفاجئ خلال الأسابيع الأولى التالية للسادس من كانون الأول/ ديسمبر، هي افتقار قسم من الأميركيين الذين

قاتلوا على جبهة الأردين، إلى الخبرة العسكرية، واعتقاد العدد الأكبر من القادة باستحالة وقوع هجوم ألماني كبير. بالمقابل، كان جهاز الاستخبارات في قيادة أيزنهاور أكثر واقعية، حين أشار في تقويم وضع أرسله يوم 14 كانون الأول/ديسمبر إلى مجموعات الجيش جميعها، إلى إمكانية قيام الألمان بشن هجوم تخفيفي في منطقة الأردين، مستندا في تحذيره إلى معرفته بوجود احتياطي عملياتي كان هتلر قد جمعه في الفترة المنصرمة[1]. رغم ذلك، حدثت صدمة في مقر قيادة الحلفاء، عند وقوع الهجوم، وصفها جنرال الاستخبارات السابق سترونج بطريقة لا تعرف المجاملة.

كان مقر أيزنهاور الرئيس نهاية سنة 1944 في فرساي. وكان السادس عشر من كانون الأول/ديسمبر يوما شديد البرودة، سماؤه مغطاة بغيوم منخفضة، جعلت الاستطلاع الجوي مستحيلا. تلقى الجنرال سترونج قبل وقت قصير من تناول طعام الإفطار، تقارير حول هجوم ألماني في الأردين، لكنه لم يعرها أهتماماً كبيراً أول الأمر، من نمط الاهتمام الذي تم إيلاؤه للأخبار الأولى حول القفزات المظلية وما تبعها من إنزالات في النورماندي خلال السادس من حزيران/يونيو سنة 1944. كان الألمان قد بدأوا للتو هجوما تخفيفيا محليا. بينما دار الحديث في المؤتمر اليومي عند أيزنهاور، الذي شارك فيه الجنرال برادلي، وبيدل سميث وبول والمارشال الجوي تيدر والجنرال شباتس، حول قضايا ومسائل أخرى، تتعلق بهجوم جديد للحلفاء، قبل أن يتغير الأمر. يقول سترونج، وكان مشاركا في المؤتمر:

«كان بيدل سميث يسأل برادلي عن الفرص التي يعطيها للهجوم الشمالي، وما إذا كان سينجح في احتلال سدود نهر الروير، عندما تم استدعاؤه على عجل. كان نائبي الجنرال بيتس يقف بالباب، وهو عادة رجل

(1) سترونج، ص 195.

هادئ ورصين، لكنه بدا هذه المرة مزعزعا وقلقا جدا... وكان جديده ينصب على الأردين... حيث تحدثت التقارير التي تلقيناها عن وقوع هجمات ألمانية عنيفة تغطي مناطق واسعة، ضد الخطوط الأميركية. كانت الأخبار جزئية ومتناقضة، كما هو شأنها دوماً قبل بلوغ المعركة مداها الكامل واتضاح نوايا العدو. وقد سدد الألمان ضربتهم ضد ذلك الجزء من الجبهة، الذي حافظ عليه عدد قليل جداً من الجنود الأميركيين، افتقروا فضلا عن ذلك إلى الخبرة القتالية، وتأكدت مشاركة عدد من الفرق الألمانية في العملية، كبير بدرجة غير عادية»[1].

اتضح، في الأيام التالية، لمقر قيادة أيزنهاور الرئيس أن الأمر يتعلق بهجوم كبير أعدته يد ألمانية طويلة. لم يكن أحد ينتظر حدوث شيء كهذا، بينما عمل الألمان كل ما يلزم لإبقاء استعداداتهم سرية. يقول الخبير سترونج حول هذا الجانب: «استخدم الألمان جميع الخدع الممكنة، للإبقاء على سرية مقاصدهم أو لسترها، فأطلقوا تسميات خاطئة على تشكيلاتهم، وأعادوا ترقيمها. وانتجوا في مناطق معينة وحلا اصطناعياً، لإيهام قواتنا أن وحدات النقل الألمانية ووسائطها قد غادرتها. وتبادلوا رسائل مشفرة بين دوائر قيادية وهمية، ونفذوا تحركات الوحدات الضرورية للهجوم ليلا، وغطوا الطرق بالقش للتخفيف من ضجيج الآليات. واتخذوا تدابير وقائية لتحاشي وقوع خيانة لخططهم. وسحبوا مجموعات الاستكشاف. وحين كنا نقبض على أسرى، كان هؤلاء يقدمون معلومات مضللة حتى لقادة فرقنا، وأرسلوا منذ بضعة أسابيع فرقا جديدة أو أعيد تشكيلها إلى منطقة الأردين، حيث كانت تبلغ قوتها القتالية العددية، وتتدرب وتتلقى تعليماتها، قبل أن تنقل إلى قطاعات مضطربة من الجبهة، فتحل محلها فرق أخرى، كل هذا

(1) سترونج، ص 196 وما يليها.

من أجل جعلنا نعزز اعتقادنا أن الأمر يتعلق بمنطقة تدريب، وتبديد شكوكنا حول ما يحدث. كما تم توزيع الفرق المخصصة للهجوم على قرى متفرقة، فصار من الصعب معرفة انتشارها الحقيقي»[1].

ما إن جاء يوم السابع عشر من كانون الأول/ديسمبر، حتى كان مقر أيزنهاور الرئيس متأكداً من أنه تعرض للخداع، وأن الألمان نجحوا في إحداث مفاجأة عملياتية، جعلت الصحافة الأميركية، اليقظة والنقدية، تتهم القيادة الأميركية العليا بالعجز عن جمع المعلومات، «وتطالب بقطع بعض الرؤوس». في الحقيقة، سمح جهاز الاستخبارات الحليف بخداعه، مثلما سبق لجهاز الاستخبارات الألماني أن سمح بخداعه في السادس من حزيران/يونيو سنة 1944. في مساء يوم الهجوم الثاني، بينت المعلومات الآتية من الجبهة أن 25 فرقة ألمانية تشارك فيه، وأن بعضها قام باختراق عميق لخطوط الحلفاء.

«ذلك كان أكثر بكثير من هجوم تخفيفي، من النمط الذي كنا نتوقعه»[2].

في الثامن عشر من كانون الأول/ديسمبر جاء وفد فرنسي بقيادة الجنرال جوان إلى مقر أيزنهاور الرئيس، فصحبه بيدل سميث إلى غرفة الخرائط، لإعلامه بالوضع الراهن. يقول سترونج حرفيا: «بينما كنا نسير بمحاذاة الممرات، لاحظت أن الفرنسيين ينظرون باهتمام إلى داخل مكاتبنا. أخيرا، قال أحد الجنرالات لي: «لماذا لا تحزمون أمتعتكم؟. ألا تتخذون ترتيبات للانسحاب؟.». ذلك لم يكن كلاما جديا، بطبيعة الحال، لكنه كان يعبر عن ذكريات حملة سنة 1940 في الغرب، التي فرضت نفسها قسرا هذه الأيام.

(1) سترونج، ص 198.
(2) سترونج، ص 201.

سافر أيزنهاور يوم الثلاثاء في التاسع عشر من كانون الأول/ديسمبر إلى مقر قيادته المتقدم في فردان، حيث كان جميع قادة مجموعات الجيوش الحليفة قد حضروا شخصيا، باستثناء مونتغمري، الذي أرسل نائبا عنه. «كانت قاعة المؤتمر مزدحمة، وكان الجو متوترا. ومثلما هو الحال عند حدوث نكسات، وقعت تباينات في الرأي بين الحلفاء، وصدرت أحكام مختلفة كل الاختلاف حول الوضع. في هذه الأثناء، كان أيزنهاور محافظا على رباطة جأشه وهدوئه، وأعطى التوجيهات الضرورية بتأن وتفكير، جاعلا هدفه الأول فك الطوق عن القوات الأميركية المحاصرة في الباستونيه. مع ذلك، فإن المقر الرئيس لم يكن قد سيطر بعد على الوضع في منطقة الاختراق». عندما عاد الجنرال سترونج إلى فرساي، بعد انتهاء المؤتمر في فردان، وجد أخبارا سيئة على مكتبه، صارت مثيرة للقلق عند منتصف الليل إلى حد أجبر رئيس أركان أيزنهاور، الجنرال بيدل سميث، على مغادرة فراشه. لقد وقعت الصدمة ولم يعد هناك أي سبب لإنكارها، مثلما حاول هذا أو ذاك أن يفعل في فردان، إذ كانت مجموعة جيش الشمال بأسرها تعاني أشد المعاناة[90]. استنفرت جميع قوات المناطق المجاورة للخرق، من أجل شن هجمات على مجنبة المهاجم المتقدم، الذي كان يريد الوصول إلى نهر الماس. هل كان يجب إسناد الإمرة في الشمال لمونتغمري الشديد الحذر؟. يقرأ الخبير لدى سترونج، الذي نتابعه هنا، بين الأسطر[1]، ويعلم أنه كان هناك خلافات في الرأي حول هذا الموضوع، وأنه ربما حدثت مشادات كلامية بسببه. وقد أفهم بيدل سميث، بلغته المقتضبة ومظهره الذي يشبه الدب، الجنرال سترونج أنه والجنرال البريطاني وايتلي لم يعودا مقبولين ضمن أركان أيزنهاور.» وفي اليوم التالي، صدر الأمر بإعفائنا من منصبينا، وبإعادتنا إلى

(1) سترونج، ص 207.

إنجلترا». هذا كلام واضح المعنى، وإن لم يفصح سميث عنه صراحة، وهو أن صدمة الأخبار السيئة جعلته مصمما على الانفصال عن رئيس الاستخبارات البريطاني[91].

من الضروري هنا التذكير بالاستخبارات الألمانية قبل هجوم الأردين وخلاله. حسب التقرير غير المطبوع، الذي بحوزتي[1]، نجحت استخبارات ألمانيا في تحقيق نتائج على قدر كبير من الأهمية. يقول التقرير: «كان من الضروري، قبل الهجوم المباغت، التأكد من أن العدو لم يلاحظ شيئاً عن النوايا الألمانية، في ظل تقيد الجيوش المتأهبة بصمت لاسلكي تام. من جانبها، كانت الاستخبارات الألمانية تعرف تمام المعرفة التنظيم المعادي، وتعلم أن قوى الأميركيين أقل عددا من قوى ألمانيا في قطاعات الجبهة التي ستتعرض للهجوم، وتعرف أن العدو لم يتخذ أي ترتيبات دفاعية خاصة أو يستنفر قواته الاحتياطية. صباح يوم الهجوم الأول، في السادس عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر 1944، أكد نص برقية صدرت عن قطاع الجيش الأول الأميركي المفاجأة، وقال: «إن الألمان فاجأوا الاميركيين وهم نيام». ثم تلت ذلك أنباء ومعطيات حول التراجع الأميركي، والمدى الذي وصلت إليه طلائع الدبابات الألمانية في توغلها، والخسائر الفادحة التي حلت بالحلفاء». هذا ما يقوله التقرير. ومع ذلك، فإن نجاح الاستخبارات الألمانية الأكبر، كان كشف شبكة جديدة للشرطة العسكرية الأميركية، بعد أيام من بدء الهجوم، حيث إن وحدات كبيرة من الشرطة العسكرية كانت تعمل في هذه المرحلة من المعركة عند جميع تقاطعات الطرق ومحطات القطار في المناطق الفرنسية / البلجيكية الخلفية، وقامت بإرسال معلومات متلاحقة عن التحركات الكبيرة للقوات، واستخدمت في ذلك نصا شفريا سهل الفك،

(1) التقرير في حوزة المؤلف.

خالطه كثير من النصوص الواضحة، التي كان القصد منها بلوغ تفاهم سريع بين المتخاطبين. هكذا عرفت الاستخبارات الألمانية المتخصصة بالعدو بمعلومات تفصيلية وافية عن أنواع القوات، وطلائع المسيرات الحربية، وسرعتها، وطول قوافل الوحدات الأميركية المتدفقة على المعركة، أوضحت منذ اليوم الرابع لمعركة الأردين أنها لم تكن وحدات تفتقر إلى كل شيء، استنفرت على عجل وجمعت كيفما اتفق، بل كانت وحدات نخبة، وأنه تم إفراغ قطاعات أخرى من الجبهة من القوات التي كانت مرابطة فيها، لأن الأميركيين كانوا على ثقة من أن القوة القتالية للألمان، التي أصابها الضعف منذ وقت طويل، لا تسمح بشن هجمات في قطاعات الجبهة الأخرى، مهما كانت ضعيفة.

تبدد الضباب الشتوي على جبهة الغرب يوم 23 كانون الأول/ديسمبر، وحل محله مناخ واضح مشمس، جعل بوسع الحلفاء استخدام تفوقهم الجوي من جديد. كان هجوم الأردين قد بلغ ذروته وتجاوزها في هذه الأثناء، وكانت الصدمة العملياتية قد فعلت فعلها طوال أيام ثمانية، وحققت نجاحات أولية مهمة، خاصة لدى الجيش المدرع الخامس بقيادة الجنرال فون مانتويفل، وكانت طلائع الهجوم الألماني قد اقتربت في اليوم المذكور إلى كيلومترات قليلة من الماس، بين دينانت وجيفه، حيث بقيت من دون حراك، بسبب نفاد محروقاتها. مع الرابع والعشرين من الشهر، بدأت كفة المعركة تميل لمصلحة الحلفاء، ثم انتصرت في النهاية الأفواج الأقوى، والأسلحة الأفضل. وتم تخطي الصدمة، التي هزت في السابع عشر من الشهر مقر القيادة الأميركية الرئيس، وحدث ما خشي وقوعه منذ البداية قادة الجبهة المجربون من الألمان: لم تعد موازين القوى والعوامل الأخرى جميعها قابلة للمقارنة بما كان موجودا سنة 1940، ولم يعد الانتصار الصاعق الذي تحقق آنذاك قابلا للتكرار. صحيح أن حدس القائد الأعلى للقوات

المسلحة الألمانية عرف الموقع الأضعف في الجبهة الأميركية، وأن أركان قيادة هذه القوات أعدت بمهارة لا مثيل لها المفاجأة العملياتية في الأردين، ونجحت في تحقيقها، إلا أنه كان قد تم بلوغ حدود الممكن بعد ثمانية أيام من القتال، في حين طالب هتلر مرة أخرى بالمستحيل، بسبب التشويش المتعاظم الذي أصاب قدرته على الحكم، الذي قيض للمؤلف أن يكون شاهدا عن كثب عليه، مثلما قيض له في السابق ان يكون شاهدا على تدابير الستر والحجب على الجانب الألماني، التي شملت أيضاً مقر الفوهرر الرئيس. لنعد الآن مجددا إلى معركة الأردين والصدمة التي سببتها للأميركيين، ولنأخذ بالاعتبار اللحظة الخاصة، التي تجلب معها خطر المفاجآت الشريرة على الدوام، ألا وهي خمود رصد العدو وتراخي اليقظة. لقد تكررت قبل الغزو صرخة تقول: جاء الذئب، لكنه لم يأت. وحين جاء أخيراً وانطلقت الصرخة، لم تجد من يصدقها. ثمة لحظة أخرى شهدها هجوم الأردين، جعلت اليقظة تتلاشى، تجسدت في قناعة الحلفاء بأن الألمان هزموا وبلغوا نهاية قواهم. هكذا، تم تجاهل علامات الحياة لدى عدو لا زال خطرا. هذا ما يشهد عليه سترونج، الذي كتب في مذكراته[1]: «عرفت بعد الحرب أن قادة ألوية أميركيين كثيرين وغيرهم تلقوا إشارات أكيدة أكثر من تلك التي وصلت إلينا في القيادة العليا، تشير إلى ما كان الجانب الألماني يعده لنا. هذه المعلومات المتفرقة لم تصل إلينا إطلاقا لأسباب مختلفة. ولو كنا سمعنا على سبيل المثال أن سيدة هاربة تحدث قبل يومين أو ثلاثة من الهجوم عن تحشدات قوات ألمانية وراء خط سيغفريد. ولو وضعت في أيدينا على الفور تلك الوثيقة التي غنمتها قواتنا، وتشير إلى حدوث تغيرات واسعة في خطط الحشد الألمانية، وحجبت عنا إلى ما بعد

(1) سترونج، ص 221.

الهجوم. ولو عرفنا بوصول طوابير سيارات نقل خلال ليليتين سبقتا السادس عشر من كانون الثاني/يناير، وهي تشعل أضواءها الكاشفة، في انتهاك صريح لتدابير الحيطة لدى الألمان، لكانت النتيجة مختلفة تماما. والحق، إن التدقيقات اللاحقة أثبتت بدورها أن تقارير استخبارات الجيش الأميركي الأول كانت مليئة بإشارات إلى الهجوم، تم استخلاصها من رصد خطوط الألمان الأمامية. لو أضيف هذا كله إلى ما تلقته القيادة العليا من مصادر أخرى، لكانت المعلومات الاستخبارية قوية الحجة إلى درجة مكنتنا من إفقاد العدو مفاجأته التكتيكية، التي خطط لها بعناية»[92].

أخيرا، يصل سترونج إلى حكم نهائي حول الجنون، الذي مثله بالأساس هجوم الأردين، عندما يقول: «لم يعتقد أحد في أي وقت أنهم سيكونون مستعدين لتعريض منطقة الرور ذات الأهمية الحياتية بالنسبة لهم، لهجوم حليف، وأنهم سيحشدون قواتهم كلها، بما في ذلك الاحتياطية منها، لشن هجوم كبير، وحيد ويائس، على منطقة الأردين قليلة السكان. لو تلقينا من أكثر المصادر صدقية مواد تؤكد بصورة دامغة أن الألمان يخططون لهجوم كهذا، لقلنا إن وسائلهم المساعدة وتدريبهم لا يكفيان لإحراز انتصار، ولكنا على حق في قولنا»[1].

لم يكن سترونج على حق، عندما تحدث عن «الألمان»، الذين كانوا قد فقدوا قوتهم السياسية والعسكرية منذ وقت طويل، فلم يكن يوجد في ألمانيا غير إرادة واحدة هي إرادة هتلر، الذي تحول إلى أسطورة، ونصف إله، و«أعظم قائد عسكري على مر العصور»، بعد الانتصار المفاجئ والساحق في الغرب سنة 1940. وكان يقرر كل شيء بمفرده، وقرر بمفرده أيضاً، حتى عندما ضيع جميع المعايير الصحيحة، وصار اضطراب عقله جليا

(1) سترونج، ص 246.

للعيان. هذا ما رآه وعرفه الرجال، الذي تجمعوا من أجل إزالته بالقوة يوم 20 تموز/يوليو سنة 1944. وعندما نجا، غدت استراتيجية العبث الورقة النهائية، التي لعبها وأدت إلى إفناء الرايش الألماني.

obeikandl.com

34. فرتز كولبه.

35. إليسًا بازنا آلياس سيسرو في السفارة البريطانية في أنقرة.

obeikan.com

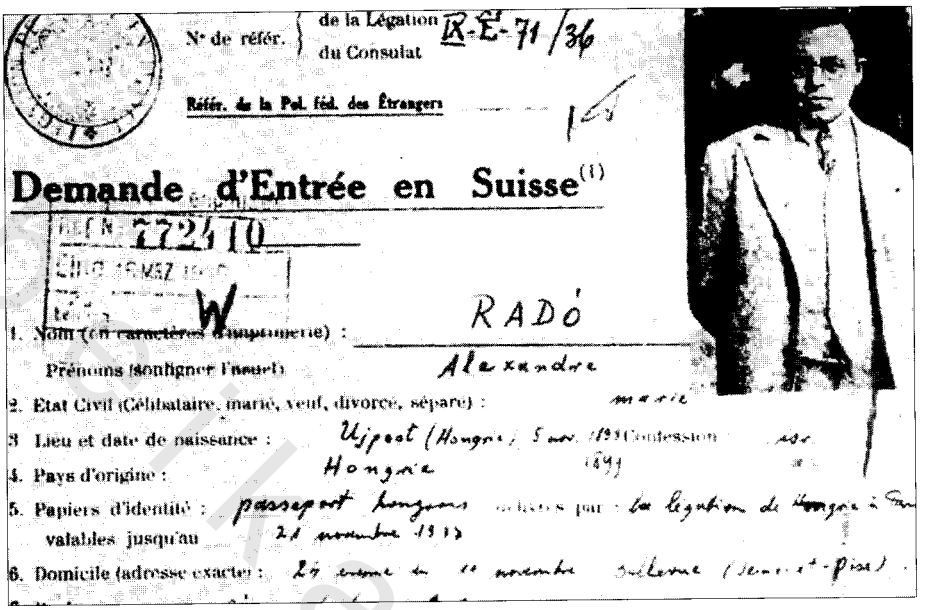

N° de référ. de la Légation / du Consulat R-E-71/36

Référ. de la Pol. féd. des Étrangers

Demande d'Entrée en Suisse(1)

772410

W

1. Nom (en caractères d'imprimerie) : RADÓ

Prénoms (souligner l'usuel) : Alexandre

2. Etat Civil (Célibataire, marié, veuf, divorcé, séparé) : marié

3. Lieu et date de naissance : Ujpest (Hongrie) 5 nov. 1899 Confession

4. Pays d'origine : Hongrie

5. Papiers d'identité : passeport hongrois délivrés par : la Légation de Hongrie à

valables jusqu'au 21 novembre 1937

6. Domicile (adresse exacte) :

36. ألكسندر (ساندرو) رادو رئيس الشبكة السوفياتية في سويسرا من 1938 إلى 1943.

37. رودولف روسلر، مدير دار فيتانوفا للنشر في لوزرن، حصل في ربيع 1942 على معلومات هامة من ألكسندر رادو.

38. هارّو شولتز – بويزن.

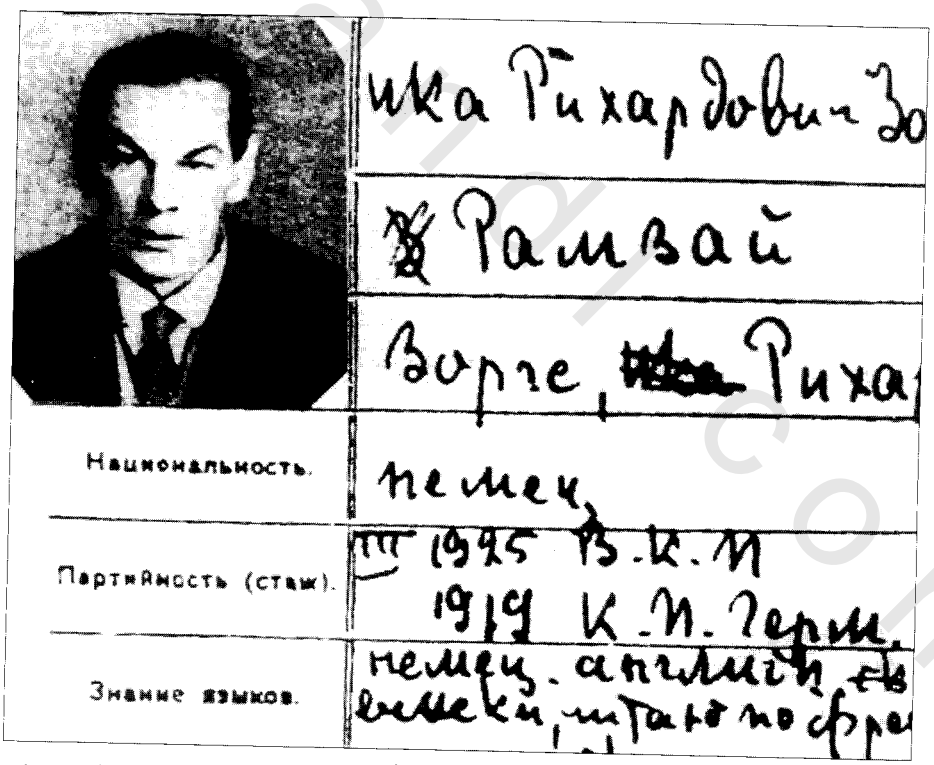

39. ريتشارد سورج، مراسل جريدة فرانكفورتر تسايتُنغ في فرنوست وموسكو وجاسوس في اليابان.

40. هانس ـ تيلو شميدت، عميل هام في خدمات الاستخبارات الفرنسية.

42. باول تومِل.

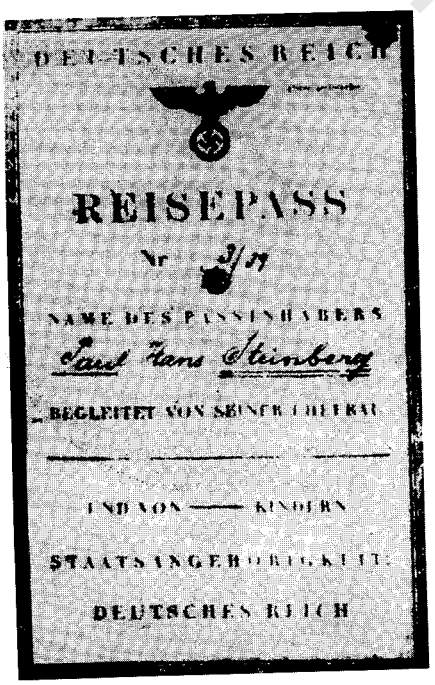

41. جواز سفر الدكتور باول هـ. شتاينبرغ، الاسم المستعار لباول تومِل.

الفصل الرابع

معركة الأردين وتهاوي شخصية هتلر

كان الإعداد الاستخباري لمعركة الأردين انتقاما للمفاجأة، التي مثلها غزو سنة 1944 بالنسبة إلى قوات ألمانيا المسلحة في الغرب، أخذ شكل صدمة غير مسبوقة بالنسبة إلى الحلفاء، الذين لم يحسبوا أي حساب لها على الإطلاق، وأثارت قلق قيادتهم العليا طوال أيام ثمانية، سبقت زوال خطر الاختراق الألماني. هذا ما قلناه في الفصول السابقة. غير أن الهجوم الألماني الكبير الأخير كانت له نتيجة أخرى إضافية، لم يعرها تاريخ الحرب كامل اهتمامه، تتعلق بأثره على هتلر نفسه، الذي أعد الهجوم بعناية ووضع أعظم آماله فيه[1]، وعندما فشل، أصيب بضرر لا يقبل الإصلاح ليس فقط في وضعه الفيزيائي، وإنما في تكوينه الروحي قبل كل شيء. هذه هي الكيفية، التي يجب أن نرى في ضوئها أحداث الغرب عند منعطف سنة 1944 / 1945، فالإجهاد فوق البشري، الذي سببه توتر معركة الأردين إيجابا وسلباً بالنسبة إلى هتلر، دمره بصورة تامة ونهائية، وجعله يسقط منذ كانون الثاني/يناير سنة 1945 في سبات عقلي متزايد، نجم عن انهيار أمله الأخير،

(1) انظر أيضا ألبرت شبير: ذكريات، برلين 1969، ص 422 وما يليها: «أوضح هتلر مرة أخرى نحو نهاية تشرين الثاني/نوفمبر، أنه يعلق كل شيء على هذا الهجوم. وبما أنه كان متأكدا من نجاحه، فقد أضاف بارتياح أنه محاولته الأخيرة، فإن فشل، فإنني لا أرى أي فرصة بعد لوضع نهاية مناسبة للحرب... لكننا سننجح، قال مواصلا حديثه، قبل أن يضيع للتو في تصورات فضفاضة وغير واقعية...».

لم يخرج منه إلا لساعات قليلة فقط، حين كان يتلقى علاجا بالإبر والأدوية على يد دكتور مول، دون أن يعود إلى الواقع السياسي والعسكري، أو يتخلى عن سلوكه المفعم بالكراهية حيال جهاز الاستخبارات المتخصص بالعدو، الذي انتهى بإعفاء جيهلن المفاجئ من الخدمة[1].

استطاع المؤلف، وكان آنذاك المراسل فون شرام، أن يراقب عن كثب تهاوي شخصية هتلر، حين ذهب إلى «عش النسر» في تاونوس، أصغر مقرات الفوهرر، الذي كان «المعلم» ـ لقب هتلر قي مقر قيادته الرئيس ـ، المحطم جسديا قد انتقل إليه مطلع كانون الأول/ ديسمبر سنة 1944، ليتركه في كانون الثاني/ يناير وقد تحول إلى رجل مسن، انطفأت جذوة الحياة فيه. هاتان الصورتان تمثلان أمام ناظري بطريقة لا تنسى. صحيح أن هتلر كان مريضا سنة 1944، غير أن مرضه لم يحل بينه وبين التفكير بهجوم الأردين، الذي أعده شخصيا وقاده، فأعقب فشله انهياره الروحي والجسدي التام، الذي عجز الأطباء إلى اليوم عن إيجاد وصف مرضي مألوف له[2]. لذلك، يستطيع المرء الاكتفاء إلى إشعار آخر بالتشخيص البسيط، الذي ينصب في جميع الأحوال على واقعة أن هتلر دمر قوات ألمانيا المسلحة بفعل الإفراط الدائم في إجهادها، مثلما دمر وجوده ذاته بفعل الإفراط الدائم في تحميل نفسه ما لا تحتمل. فهو لم يترك لنفسه فرصة لالتقاط الأنفاس ولو مرة واحدة، ولم يعرف يوم راحة واحدا، أو يأخذ إجازة من مسؤولياته العليا،

(1) راينهارد جيهلن: الخدمة. ذكريات 1942-1971، ماينز ـ فيسبادن 1974، ص 117: «أعفيت يوم 9/ 4/ 1945 من منصبي كرئيس لشعبة الجيوش الأجنبية شرق...».

(2) يقدم بيتر بام في: زمن إنسان واحد، ميونيخ 1972، ص 272 تشخيصا علميا يقول: «عصاب فصامي كبحي مصحوب بأفكار وهمية تضفي عليه أهمية مبالغا فيها». أما مرجعي النفسي فهو توماس ريجاو / الذي مر كمساعد للمستشار السري بومكه في ميونيخ بالمدرسة العليا لعلم النفس الكلاسيكي».

منذ بداية حملة روسيا يوم 22 حزيران/يونيو 1941، فدمر جسده وعقله، مثلما بدا بوضوح بعد فشل هجوم الأردين.

وصول سري

كان مبنى الملجأ الصغير مخفيا في الغابة قرب تسيجنبرج. وقد بني سنة 1939 / 1940، وتمت تسويته اليوم بالأرض. ومع أنه لم يستخدم في حملة الغرب[1]، فإنه صار في منعطف سنة 1944 / 1945 مقر الفوهرر الرئيس في قوات ألمانيا المسلحة، أدار القائد الأعلى لمناطق واسعة من وسط أوروبا تمتد من رودوس إلى النرويج، وأول وآخر فوهرر «للرايش الألماني الكبير»، هجوم الأردين منه، فكان عمله اليائس الأخير هذا فعلا أمل أن يحول مجرى الحرب العالمية الثانية، لذلك، ربط به مصير الاحتياطي العملياتي المتاح كله. كان «عش النسر» مكانا تاريخيا، فهو مقر الفوهرر الرئيس الوحيد على الأرض الألمانية، إلى جانب «عش الصخور» في الإيفل، فليته تم الحفاظ عليه ليكون نصبا تحذيريا للأجيال. لقد كان أصغر وأكثر المقرات تواضعا، التي تم بناؤها في الحرب العالمية الثانية من أجل هتلر. وقد قدر لي أن أعرف معظمها، خلال قيامي بالمهام المختلفة، كـ «وكر الذئب» في بروسيا الشرقية، وهو مدينة فوق وتحت أرضية فيها دوائر ثلاث محظورة ومحطة قطار خاصة بها، مخبأة كلها في الهوخفالد ـ

(1) شبير، ص 184: «عرفت بعض المعلومات حول نوايا هتلر الأخرى، رغم السرية التي أحيطت بها، عندما أعطاني سنة 1939 مهمة بناء مقر رئيس في غرب ألمانيا. لهذا الغرض، قمنا بتحديث تسيجنبرج، وهو مقر سيد إقطاعي من زمن جوته، يقع على منحدرات التاونوس قرب ناوهايم، وزودناه بملاجئ. بعدما انتهى البناء، وتم إنفاق الملايين، ومدت خطوط هاتف لمئات الكيلومترات، وركبت فيه أحدث وسائل الاتصال، أعلن هتلر أن المقر الرئيس مترف جدا في نظره، وأنه يريد أن تكون له حياة بسيطة في الحرب، لذلك يجب أن يقام له مسكن في الإيفل، يناسب أزمنة الحرب».

الغابة العليا -، يقع ملجأ الفوهرر، المكان الأكثر قدسية بين جميع أمكنتها في الدائرة المحظورة الأولى، وقد شهد يوم 20 تموز/ يوليو 1944 محاولة اغتياله، التي نجا منها بجراح بسيطة. و«فيرفولف» إلى الشمال من فينيسيا في أوكرانيا، وهو تجمع ملاجئ وبيوت عسكرية في أرض غابية، سكنه هتلر صيف 1942، وأقام سنة 1943 مرات قصيرة متعددة فيه، قبل أن يذهب إلى بيرشتسجادن، حيث الهدوء، أو إلى «وكر الذئب»[93]. وكان هناك أخيراً مبنى فسيح وآمن في مارجيفال قرب سواسون في شمال فرنسا، زاره هتلر يوم 17 حزيران/ يونيو سنة 1944 لفترة جد قصيرة، لكنه لم ينتقل إليه مطلقا، رغم أنه بني من أجل المعركة في الغرب. سكن هتلر «عش النسر» ومارس منه عمله القيادي من بداية كانون الأول/ ديسمبر 1944 وحتى منتصف كانون الثاني/ يناير سنة 1945، وفيه عايشنا انهياره عن كثب.

بني «حصن النسر» في سنة الحرب الأولى، قبل الانتصار الصاعق في الغرب. يؤكد هذا الغطاء الاسمنتي المتواضع للملجأ، الذي لا يقبل المقارنة مع ما بني من ملاجئ فيما بعد. كان المبنى، الواقع عند أسفل واد على بعد كيلومترين تقريبا إلى الشمال الغربي من موقع قصر تسيجنبرج في التاونوس، صغيرا إلى درجة أنه لم يكن يتسع إلا للحاشية المقربة جدا، التي كانت تتألف من المارشال كايتل والعماد يودل مع بعض المساعدين وضباط الأركان - وكنت المرافق الرئيس ليودل - ولهتلر نفسه ولقائد مجموعات الـ إس إس شاوب، ولطباخة طعام نباتي، وللخدم الشخصيين وقائد مجموعات الـ إس إس فيجلاين، ضابط الارتباط مع هملر وسلاح الـ إس إس ومرافقته، ولمدير الرايش بورمان مع اركان صغيرة، وللسفير هيفيل كمبعوث لفون ريبنتروب ووزارة الخارجية. إلى جانب هؤلاء، كان هناك أيضاً بعض العاملات والعاملين في السكرتيريا، وكوادر متخصصة بالهاتف من القوات المسلحة. وكان الطبيب الشخصي مودل يأتي يوميا، لكنه لم يسكن أبدا في المبنى، حسب ما أتذكر.

وصلنا إلى المكان في الأسبوع الأول من شهر تشرين الثاني/نوفمبر سنة 1944[94]. كانت المجموعة الثانية التابعة لمقر الفوهرر الرئيس، التي كنت أنتمي إليها، قد غادرت برلين ـ شلاختنزي سراً في غسق المساء، داخل سيارة أعدت لهذا الغرض، أوصلتنا بعد منتصف الليل بقليل إلى محطة قطار مهجورة قرب آيزناخ، حيث ركبنا سيارات باص صغيرة كانت بانتظارنا وتابعنا سفرنا نحو الغرب وسط الضباب الليلي. لم يكن بيننا من يعرف هدف الرحلة، سوى قائد المجموعة. وصلنا، في غبش الفجر، إلى أرض جبلية مغطاة بالغابات، وحين توقفنا عند قعر واد قيل إننا بلغنا هدفنا. دخلنا إلى الأقسام الضيقة المخصصة لنا في الملجأ، حيث صدر إلينا الأمر بعدم مغادرتها. كان من غير الجائز أن يعرف أحد بوجود مقر رئيس في تاونوس للقائد الأعلى للقوات الألمانية المسلحة، يحضر فيه بدرجة قصوى من السرية هجوم الأردين.

ماذا كان وضع هتلر؟. في الخريف، راجت في «وكر الذئب» شائعات تقول إنه مريض، ويعاني من متاعب في الكبد. ترى، من كان يستطيع التأكد من ذلك، وقد عزل الفوهرر نفسه عزلا تاما في الدائرة المحرمة الأولى، بينما كانت الأسئلة المباشرة عن وضعه ممنوعة. فيما بعد، سمعنا أنه شفي ويحضر بنشاط لإحدى العمليات، تسمى «حراسة على الراين». لم يكن هتلر مرئيا أول الأمر بالنسبة لنا في «حصن النسر» أيضاً. لكنه أبان لنا عن نفسه في الأيام التالية لوصولنا، بطريقة غير مباشرة أفزعتنا، بما أنها كانت تتعلق بستر المقر.

كان على مستخدمي السيارات جميعهم، سواء كانوا قادمين من الجبهة أو من تسيجنبرج، المقر الحالي الرئيس للقائد الأعلى غرب، أو من قيادة الجيش العليا، التي كانت في ذلك الوقت داخل ثكنة في جيسن، أخذ طريق

جانبية طويلة ومحددة بدقة عبر التاونوس، قبل أن يركنوا سياراتهم في موقع مغطى داخل الغابة، على الجانب الآخر من قعر الوادي، على بعد نحو نصف كيلومتر من المبنى. لم يكن الاقتراب من «عش النسر» مسموحا به إلا سيرا على الأقدام، على أن يأتي القادمون فرادى، أو أزواجاً في أعلى حد. ولم يكن من الجائز أن يشي أي طريق أو أي حركة سير بوجود المبنى. ذلك كان جزءا من خطة عامة تفرض تقيدا صارما بالسرية، غير أن القدوم والرواح الحتميان شقا بعد قليل دربا في قعر الوادي، ظهر بوضوح متعاظم بمرور الوقت، كانت آثار الأقدام تتضح عليه بوضوح أشد، عندما يسقط ثلج رطب.

لهذا السبب، أصدر هتلر أمرا بدا غريبا في نظر البعض، يرمي إلى تغيير صورة المنطقة. ولكن كيف؟. إلى جانب كتيبة الحراسة، التي قدمها لواء من الجيش هو «ألمانيا العظمى»، كان في المقر كتيبة عمل خاصة به، من السهل تكليفها ببناء طريق مغطاة في الغابة، كانت بدورها طريقا التفافية. لكن «المعلم» أمر بشيء آخر: يجب إجراء تغيير في قعر الوادي يخفي زوار «عش النسر» عن أعين المتطفلين والفضوليين على الأرض، ويمنع الرؤية من الجو. ذلك كان «أمر الفوهرر»، وأمر الفوهرر شيء مقدس. ذات ليلة، عج قعر الوادي بأشكال غامضة، وفي صباح اليوم التالي كان التغيير قد حدث بضربة سحر: لقد تغيرت المنطقة كثيراً، فهل كان التدبير صائبا؟. كانت طائرات الاستطلاع المعادية تحلق يوميا فوق التاونوس، فإن لاحظت التغيير قام الحلفاء بإسقاط سجادة قنابل عليه، وعجزت ملاجئه القديمة عن الصمود. بعد التغيير، صرنا نتوقع القصف الجوي بعد كل صفارة إنذار، غير أن الأمور سارت هنا أيضاً على غير ما توقعنا، فلم يتعرض «عش النسر»، بل تعرضت الغابات والفراغات المحيطة، وفيما بعد مكان وقصر تسيجنبرج، لهجمات الطيران المعادي[95]. وقد فاجأتني القنابل، خلال إحدى المسيرات

الليلية إلى جوتسموله، موقع العقيد ستروفه قائد المقر، وهي تسقط مطلقة صفيرا حادا، قبل أن تنفجر محدثة دويا هائلا، تبعه صدى متدرج استمر فترة طويلة. في هجوم لاحق، لم يصب مقر الفوهرر، بل أصيب قصر تسيجنبرج، مقر القائد الأعلى غرب واحترق بكامله[1].

أخذت كتيبة البناء احتياطات مبكرة ضد احتمال تدمير القصر، فأقامت سنة 1939 ملاجئ واسعة في أرضه الصخرية، وبنت مركزا لإدارة العمليات القتالية، يمكن بلوغه بقفزة واحدة من درج القصر الداخلي. لذا، لم يصب أي إنسان فيه، رغم ما نزل به من حريق ودمار.

قبل اقتراب الأميركيين، الذين أجبروها على الانسحاب، كانت أركان القيادة العليا غرب تجلس في هذا المقر الحصين ضد القنابل وكأنها في قصر أبراهام، بعكس ما كان الأمر عليه في مقر أركان كايتل ويودل في برلين، حيث لم يكن لغرف عملهم الواقعة على كرونبرنسناليه في برلين داهليم غير أقبية تسندها دعائم خشبية، وملجأ اسمنتي صغير مخصص للوثائق السرية.

ذات مرة، خلت أن القيامة قامت، حين سقطت قربي ألغام جوية معادية ذات دوي مخيف، أحدثت حفرا عملاقة في غابة كيفر المقابلة.

ماذا كان سيحدث، لو ان القنابل الثقيلة، التي سقطت مطلع كانون

(1) انظر في ما يتعلق بقصر تسيجنبرج هانس رودلف كورتس أيضا: سويسرا كمركز معلومات. سويسرا في استخبارات الحرب العالمية الثانية. فراونفيلد وشتوتجارت 1972، ص 20: «وقد عرفنا أيضاً في وقت مبكر عبر خط آخر قيم ـ ضابط استخبارات في مقر الفوهرر الرئيس ـ معلومات حول تنقلات مهمة، فعرفنا على سبيل المثال عن قرب نقل مقر الفوهرر إلى تسيجنبرج، الذي تم قبل بدء حملة الغرب». لكنه لم يتم أبدا شغل تسيجنبرج، بل شغل «عش الصخور» في الإيفل. ربما يكون دالس قد عرف سنة 1944 / 1945 من احد جواسيسه بنية الانتقال إلى مقر الفوهرر المزعوم في تسيجنبرج، الذي وجهت ضده هجمات جوية شديدة.

الثاني/يناير على «عش النسر» حطمته؟. لقد نجا هتلر مرة أخرى، رغم أن وضعه الجسدي كان يزداد سوءاً باضطراد، مثلما تأكد لي منذ أيام الهجوم الأولى. كان يوجد خلف المقر قطعة من الغابة أحيطت بأسلاك، تحرسها مواقع ثابتة ودوريات متحركة ؛ ولأن كثافة أشجار الغابة كانت قليلة هنا، فقد نشرت شبكات التمويه فيها، فكنت أرى بعد ظهر تلك الأيام الشتوية، عندما لا تمطر أو يسقط الثلج، كائنا محني الظهر بعض الشيء وهو يجرجر أقدامه، وقد رفع ياقة المعطف الرمادي اللون إلى أعلى، ودفن يديه في جيوبه. تلك كانت فترة «نقاهة» القائد الأعلى و«المعلم»، الذي يحرسه رجلا إس إس يحرصان على إخفاء نفسيهما وراء الأشجار، والبقاء بعيدين بعض الشيء عنه، وقد علقا رشاشيهما على كتفيهما استعدادا لإطلاق النار. ذات يوم، حمل يودل، وكنت مرافقه الشخصي، خلال نزهته خبراً مهماً من الاستطلاع اللاسلكي، فرأيت عن قرب وجها رمادي اللون، امَّحت معالمه وبرزت منه عينان جاحظتان تفيضان عذابا، لا يجمع جامع بالرجل الذي عرفته في لقاءات سنوات الحرب الأولى. رفع هتلر رأسه وبقي واقفا، بينما قرأ يودل نبأ الاضطراب الذي دب في صفوف الأميركيين، المأخوذين على حين غرة، وصرخات النجدة التي أطلقوها والتقطها قسم التنصت اللاسلكي. بدا وجه هتلر جامدا لا يتغير، لكن عينيه امتلأتا فجأة بالحياة والتمعتا «هذا جيد»، قال فجأة، ثم استدار مواصلا جرجرة قدميه. في المكتب، قال لي يودل، بعد لحظة صمت: «لا تخدع نفسك، فإرادته ليست محطمة، وليس بوسع أحد تخطيه، وهذا الهجوم هو هجومه». فشل هجوم هتلر الكبير الأخير، وعرفنا ليلة عيد الميلاد، في 24 كانون الأول/ديسمبر، أنه لم يعد هناك أمل. صار العيد، الذي أقمناه في الطاحون عند العقيد ستروفه «حزينا»، رغم ما بذله من جهد كي يجعله مرحا[96]. لم تنطلق أي أغنية، بذريعة أننا لا نريد كشف موقعنا، وأن عمليات القصف الجوي الليلية

تكاثرت تلك الليلة. لم يعد هتلر يقوم بنزهاته،وقيل إنه عزل نفسه مذ بدأت أخبار جبهة الأردين تزداد سوءا. هل كانت إرادته غير محطمة الآن أيضاً؟. تحدثت بصراحة مع أحد ضباط أركان يودل عن المأزق الذي آلت إليه معركة الأردين، وتساءلت: ألم يكن ممكنا توقع أن اليد العليا ستكون في نهاية الأمر للأميركيين، أصحاب الأفواج الأقوى، حتى إن نجحت المفاجأة؟. أعطاني الرائد (ب) الحق، وأكد أن أرادة هتلر لم تتحطم، ثم أضاف مفكرا: إرادته أم عناده؟. وأسر إلي أن «المعلم» يخطط لهجوم جديد، ستنفذه فرق إس.إس سحبت من الجبهة الغربية، ميدانه هنغاريا. دهشت، أردت أن أعرف لماذا هنغاريا بالذات؟. «هذه قيادة الحرب المتقابلة القطبية، التي يتحدث الجنرال شيرف عنها دوما».

«قيادة حرب متقابلة القطبية؟. ما معنى هذا؟» سألت محدثي.

«نقيض القيادة المألوفة، الأكاديمية!».

«حتى إن كانت عبثية؟».

«حتى عندما تكون كذلك ولأنها ستكون كذلك». «ولكن لماذا نختار ما هو عبثي بالذات؟».

«لأن أحدا لا يتوقعه، ولأنه ربما أدت مفاجآته إلى نجاح نهائي». لم أستوعب طوال أيام كثيرة هذه المحادثة، ولم أتمكن من الوصول إلى شيء ذي جدوى مع «قيادة الحرب متقابلة القطبية». ثم قدر لي أن أعيش خلال الأيام الأخيرة من إقامتنا في «عش النسر» حدثا إضافيا، شغلني وأقلقني.

ما هو وضع القوى العقلية «للرجل الأول في الدولة»، للدكتاتور الذي يتعلق به مصيرنا جميعا؟. علمت، عندما كنا في «عش النسر»، بيأس شاهد عيان، عرف «المعلم» وكان على مقربة منه أكثر من أي شخص آخر، هو

قائد الهجوم الرئيس لينجه، مرافقه الشخصي، وخادمه، كما كان يسمى في الماضي. كنا نلتقي أحياناً مساء في المطعم الصغير البارد. وكان لينجه يعرف كيف يروي أحاديثه بطريقة تثير الاهتمام، خاصة وأنه كان صريحا ويثق بي. ذات مرة، كنا وحيدين تماما، عندما بدأ يتحدث، تحدوه رغبة واضحة في الإفصاح عن مكنونات نفسه. كان حديثه يدور حول المعلم، وقد وصف بصوت منخفض وضعه، الذي بدأ يتدهور بتسارع منذ ليلة الميلاد.

«إنه بالكاد ينام. ولم يعد يتحدث معي. وهو يجلس ساعات طويلة متكوِّماً على نفسه، وعيناه مثبتتان حتى ساعات الصباح على الزاوية. ماذا يحدث، وإلى متى سيبقى على هذه الحال؟. سألت لينجه، فهز كتفيه. عندما أضفت: لكنه لا زال يعرف ما يريد، قال: «نعم، ما دام الطب يساعد والإبر تؤثر، فإن الأمور تعاود سيرتها العادية من جديد، لساعات قليلة فقط». لاحظت أن لينجه لا يطيق ذكر الدكتور مول، ومعظم «شيوخ» مقر الفوهرر. «كيف سينتهي هذا»؟. سألني في النهاية: «بصورة سيئة»، أجبت باختصار. «هذه هي نهايتنا»، قال لينجه بمرارة: «لقد خشيت ذلك منذ وقت طويل، لكنني واثق الآن أنها نهايتنا». لم يعد لينجه مؤمنا بهتلر، وبعبقرية الفوهرر، وبالأسلحة العجائبية وحدس القائد الأعلى المنقذ، الذي «لم يعد غير مجرد رجل مريض». بعد أيام قليلة تركنا «عش النسر» بطريقة أقرب إلى الهرب. حدث ذلك قبل فترة قصيرة من 15 كانون الثاني/ يناير 1945. كان الروس قد حققوا اختراقا قرب بارانوف، وتدفقوا بقوة هائلة وكتل متدافعة نحو الغرب. وعندما وصلنا إلى برلين، كانوا قد بلغوا حدود الرايش القديمة وتجاوزوها، وكان الاحتياطي العملياتي، الذي كنا بأمس الحاجة إليه من أجل الدفاع عن الرايش، قد جرى تدميره في الأردين، حيث كان الهجوم مجرد مفاجأة ونجاح أوليين، لكنه فشل في نهاية الأمر، مع أن أحدا لم يخنه.

لكل ما يستحق

بعد العودة من «عش النسر»، رجعت إلى هيئة أركان رئيس قوات الدعاية، اللواء فون فيدل، الذي كان ومعسكره في سوسن جنوب برلين. وكنت أسافر يومياً إلى شارع كرونبرينساليه، حيث يودل، لأضع أمامه مسودة تقرير القيادة العليا للقوات المسلحة، لكنني غالباً ما كنت أبقى هناك بسبب الغارات الجوية أو صفارات الإنذار. ذات مرة، وبينما كنت في الطريق، أصابت سجادة قنابل المعسكر وعرضته لدمار شديد، وأحدثت فيه خسائر. لكن قذيفة طائشة سقطت أمام البراكة، التي كنت أسكنها، ورشقتها بالرمل دون أن تسبب أي أضرار فيها. في هذه الأثناء، كان يودل قد غدا سكوتا تماماً في برلين، وقد لاحظت في شباط/فبراير أثناء تحرير تقارير القوات المسلحة إصراره على قول الحقيقة، قدر المستطاع، ليتمكن المدنيون من الجلاء عن المواقع المهددة في الوقت المناسب. وكانوا في الماضي يلجأون إلى جمل عمومية، حين تقع أزمات، كان العماد يعلق عليها بحكمة فريدريك الكبير، التي تقول «عندما تقع الحرب، تكون الحقيقة أول قتلاها». لكنه كان اليوم يقول الحقيقة حيثما يستطيع، رغم أنها كانت لا تفتأ تزداد مرارة، لأنه كان قد أقلع منذ وقت طويل عن التعلق بأي أمل، وشرع يعاني بصمت، حتى إن سكرتيرة كانت تعرفه منذ وقت طويل قالت لي بصوت هامس، حين دخل ذات مرة إلى مكتبه بعينين حمراوين: «لقد أمضى من جديد الليل كله وهو يبكي». كنا نعلق آنذاك آمالنا كلها على يودل، الذي كان يجب أن يتولى قيادة الحرب بدلا من هتلر المريض، فيضع لها نهاية سريعة قدر المستطاع، بالتخلي عن المواقع الخارجية العبثية، وتركيز القوى جميعها للدفاع عن الرايش، على غرار ما أراد اللواء بيك القيام به في 20 تموز/يوليو 1944[1].

(1) انظر أيضا فيلهلم فون شرام: انتفاضة الجنرالات (العشرين من تموز/يوليو في باريس) =

لكن هذا كان يشترط قبل كل شيء العودة لدى اتخاذ القرارات، إلى التقاليد المجربة، والانطلاق من واقع العدو. وقد كلفني فيديل بإعداد دراسة حول هذا الموضوع أقدمها إلى يودل، الرجل الأكثر أهمية في قيادة أركان القوات المسلحة. وبالفعل، كتبت الدراسة المذكورة خلال يومين تحت عنوان «معرفة وعلم العدو»، وهي مشكلة كانت قد شغلتني بصورة جدية منذ سنة 1939، أثناء تدريبي في الاستخبارات المتخصصة بالعدو. وافق فيدل على الدراسة ورحب بها، لكنه طلب إلي، بما عرف عنه من انضباط وتقيد بأصول الجندية، عرضها على خبير نكن جميعنا له احتراما خاصا، ليراجعها ويكملها، إذا تطلب الأمر. هذا الخبير كان اللواء جيهلن، رئيس شعبة «الجيوش الأجنبية شرق». وقد نفذت مطلع آذار/مارس من سنة 1945 ما أمرني به فون فيديل.

ثم انقطعت أخبار هذه الدراسة تماماً .كان الوضع العام يسوء بسرعة، وكنا نغرق في الهموم، لأن الحرب كانت تدور منذ وقت طويل على الأرض الألمانية، وشقاء الشعب يتعاظم كل يوم، بل كل ساعة، بينما يقف مئات آلاف الجنود الألمان على أتم استعداد في الدنمارك والنرويج وجزر القنال والحصون البحرية الفرنسية ورودوس، أو يجدون أنفسهم في ضرب من حجر ذاتي طوعي، كما كان حال مجموعة الجيش شمال في كورلاند. بلغ الإرهاق، الذي حل بي نتيجة هذا التطور، درجة من الشدة أصبت معها بنوبة قلبية في نهاية آذار/مارس سنة 1944، فأمرني الأطباء بالتزام الهدوء، وأرسلني يودل للنقاهة

= الطبعة الرابعة، ميونيخ 1964، ص 86: «بعد ظهر 20 من تموز/يوليو 1944 قال اللواء بيك على الهاتف مخاطباً المارشال فون كلوجه: علينا مواصلة الحرب، لكنها يجب أن تدار أخيراً من أناس يفهمون شيئاً عنها. أما «العمل الرسمي» الأول لبيك، فكان إصدار أمر إلى مجموعة جيش الشمال، التي كانت مهددة بالتطويق، بالتراجع إلى نهر الدونا».

في فندق «شيفسمايستر» على بحيرة كونيويه، التابع لقيادة أركان القوات المسلحة. هكذا عشت نهاية الحرب في بلاد بيرشتسجادن، ثم في منطقة سالزبورج، التي لجأت إليها قيادة أركان القوات المسلحة جنوب. وكنت قد توليت في هذه الأثناء قيادة وحدة إمداد في دورفجاشتاين، ونجوت أول الأمر من الاعتقال، وبقيت حراً حتى نهاية شهر حزيران/يونيو من سنة 1945.

لكنني سرعان ما وقعت في الأسر، ثم جاءت سنوات الفاقة، والبناء، ودراسة الأحداث التاريخية. كنت قد نسيت منذ وقت طويل دراسة 1945 حول «معرفة وعلم العدو». وفي سنة 1966، بعد واحد وعشرين عاما من نهاية الحرب، كنت أطير وزوجتي إلى إقامة دراسية تستمر فصلا واحدا في الولايات المتحدة الأميركية، تكفلت ابنتي المتزوجة في بنسلفانيا بتكاليفها. وقد ذهبت بطبيعة الحال إلى العاصمة واشنطن، وقمت بزيارة المدراء المسؤولين في الأرشيف القومي، الذين أعلنوا للتو استعدادهم لدعم أبحاثي في التاريخ المعاصر، ووجدت في ريتشارد باور، المولود في كروميخ بشفابن البافارية، مستشارا معوانا وخبيرا عارفا، اصطحبنا عبر مستودعات الكساندريا، التي ضمت الوثائق الحربية الألمانية، وحافظت على وثائق لا يحدها بصر، هي العمل الحياتي الذي أنجزته أجيال كاملة من المؤرخين المجدين. لم يكن سهلا أن يتعامل المرء مع هذه الوفرة الهائلة من الوثائق، ولم يكن الحصول على نظرة عامة حولها ممكنا إلا بمساعدة «الفهارس». عندئذ، حدث ما لم يكن متوقعا، فقد عثرت أثناء دراسة «فهارس» الجمعية التاريخية الأميركية / لجنة دراسة وثائق الحرب، على اسمي بالمصادفة، مدونا ضمن سجلات المقرات الرئيسة لقيادة الجيش الألماني العليا، ووجدت دراسة «معرفة وعلم العدو» ورد جيهلن الموجه إلي. لم تصلني الدراسة والرد عليها آنذاك، بل وقعتا غنيمة في يد الأميركيين المتقدمين، لكنهما كانتا هنا، بعد أن عبرتا المحيط بالسفن، لتخزنا في ألكساندريا.

كانت النسخة الآن في متناول يدي[1]، وأيقنت أن كتابة الدراسة لم تكن من دون جدوى. صحيح أنها ما كانت لتغير شيئاً في مآل الحرب، إلا أنها حفزت أبحاثي حول الاستخبارات المتخصصة بالعدو، وحول المعارف الاستخبارية التي يجب استخلاصها من الحرب العالمية الثانية، والتي سجلتها في الدراسة استنادا إلى تجاربي كراصد ومراسل، وكان أكثرها إثارة للاهتمام تلك التي تتعلق بـ«حصن الألب» ومصير برلين سنة 1945.

(1) النسخة بحوزة المؤلف. أما أن رسالة جيهلن لم تصلني، فتفسرها ظروف نهاية الحرب، خاصة وأن الأقسام الأولى من «الجيوش الأجنبية شرق» كانت قد نقلت في 15 شباط/فبراير 1945 إلى باد رايشنهال.

obeikandl.com